

المكتبة الثقافية

٢٠

الثورة العراقية

الكاتب: محمد الصبيح مصطفى

وزارة
الثقافة والإعلام
الإدارة العامة للثقافة

0193292



Library of Congress

Bibliotheca Alexandrina

أول طبعة ١٩٦١

اهداءات ١٩٩٩

١/ محمود محمد علي العيسوي

الإسكندرية

المكتبة الثقافية

٣٠



التثورة العراقية

الدكتور أحمد عبد الرحمن مصطفى

١٩٦١ - ١٩٦٢ - ١٩٦٣ - ١٩٦٤ - ١٩٦٥ - ١٩٦٦ - ١٩٦٧ - ١٩٦٨ - ١٩٦٩ - ١٩٧٠ - ١٩٧١ - ١٩٧٢ - ١٩٧٣ - ١٩٧٤ - ١٩٧٥ - ١٩٧٦ - ١٩٧٧ - ١٩٧٨ - ١٩٧٩ - ١٩٨٠ - ١٩٨١ - ١٩٨٢ - ١٩٨٣ - ١٩٨٤ - ١٩٨٥ - ١٩٨٦ - ١٩٨٧ - ١٩٨٨ - ١٩٨٩ - ١٩٩٠ - ١٩٩١ - ١٩٩٢ - ١٩٩٣ - ١٩٩٤ - ١٩٩٥ - ١٩٩٦ - ١٩٩٧ - ١٩٩٨ - ١٩٩٩ - ٢٠٠٠ - ٢٠٠١ - ٢٠٠٢ - ٢٠٠٣ - ٢٠٠٤ - ٢٠٠٥ - ٢٠٠٦ - ٢٠٠٧ - ٢٠٠٨ - ٢٠٠٩ - ٢٠١٠ - ٢٠١١ - ٢٠١٢ - ٢٠١٣ - ٢٠١٤ - ٢٠١٥ - ٢٠١٦ - ٢٠١٧ - ٢٠١٨ - ٢٠١٩ - ٢٠٢٠ - ٢٠٢١ - ٢٠٢٢ - ٢٠٢٣ - ٢٠٢٤ - ٢٠٢٥ - ٢٠٢٦ - ٢٠٢٧ - ٢٠٢٨ - ٢٠٢٩ - ٢٠٣٠

٥٣٠٦٩

وزارة
الثقافة والإعلام
إدارة العامة للثقافة

المكتبة العامة لثقافة الإسكندرية
رقم الكتاب: ٥٣٠٦٩
رقم التصنيف: ٥٣٠٦٩
رقم التسجيل: ٥٣٠٦٩

أول فبراير ١٩٦١

الناشر



دار القلم

الإهداء



إلى محمد عبيد وكل شهداء التل الكبير .

إلى أحمد هراي الزعيم الفلاح، الذي ظلمه التاريخ،
واقترى عليه المؤرخون .

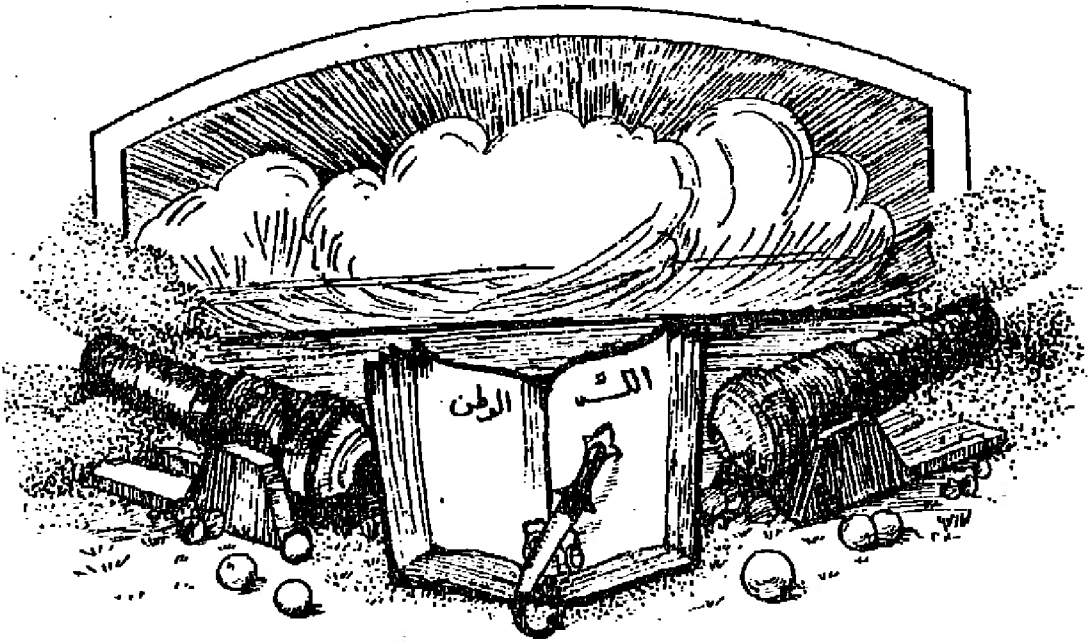
إلى الجنود المجهولين الذين عملوا وأغفل التاريخ
أسماءهم .

إلى الذين يعملون في صمت . .

إلى الجيل المكافح من شباب العرب .

إلى كل هؤلاء أهدى هذه الصفحات التي تميّط بعض اللثام

عن ثورة ١٨٨١ — ١٨٨٢ المعروفة بالعراية .



مقدمة

والناس من يلق خيرا قائلون له ما يشتهى ، ولأم المخطيء الهبل

الموجة المصرية المعروفة بالعرايية (١٨٨١ - ١٨٨٢)
من الأحداث الخطيرة ، ليس فقط في مصر ، بل في
العالم الإسلامي بوجه عام والعالم العربي بوجه خاص . وهي بالنسبة
إلى هذه البلدان وبالنسبة إلى مصر لا تقل أثرا عن أية ثورة
تحريرية أخرى عرفها العصر الحديث . كانت رد فعل للعدوان
الأوربي الذي أخذ يتغلغل في مصر في عصر خلفاء محمد علي ،

على شكل شركات وجاليات أوروبية ، همها الكسب ورأس مال يتغلغل في البلاد على شكل ديون ومشروعات وربما ، إلى غير ذلك من عمليات السطو المنظمة التي استلبت رزق المصريين ، وضيق عليهم الحناق في عقر دارهم . كما أنها كانت ثورة وطنية ضد العناصر الأجنبية الممتازة ، التي مكنت لها الأسرة المالكة وأوسعت لها في العطاء والأملاك والمناصب ، والتي كانت تنظر إلى المصريين بعين الاحتقار وتطلق عليهم اسم « الفلاحين » . هذا إلى أنها أولى الثورات الدستورية في العالم العربي .

وقد مضت فترة طويلة شوه فيها تاريخ هذه الثورة ، وتعرضت للنقد والقدح المفرطين من جانب الكتاب « الرميين » و « شبه الرميين » في مصر ، ومن جانب الكتاب الغربيين الذين استوحوا الاتجاهات الاستعمارية وما في طياتها من نزعات استعلائية وعدوانية ، يمثلها خير تمثيل « رديارد كبلنج ^(١) » شاعر الاستعمار البريطاني الذي بشر برسالة الرجل الأبيض من حيث تمدين الشعوب « المتخلفة » ، وقال قولته المشهورة : « الشرق شرق والغرب غرب ... ولن يلتقيا » . وما محمد المؤرخ مصرى هو الأستاذ عبد الرحمن الرافعي مؤرخ الحركة القومية ^(٢)

(١) Rudyard Kipling

(٢) الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزي لمصر (١٩٤٧) .

والأستاذ محمود الحفيف^(١) أنهما - في عصر كان فيه التاريخ يستوحى أمجاد الأسرة العلوية ، يصادق من يصادقها ، ويعادى من يعادىها - ولم يترددا في تصوير هذه الثورة على حقيقتها وفي إلقاء اللوم على الخديو ، مخالب القط في يد أعداء الوطن ، الذي استعدى الأجنبي على أهل بلده وسهل له احتلال البلاد - وإن يكن الأستاذ الرافعي قد قسا على زعماء هذه الثورة المصرية ، ولم يقس أعمالهم بمقياس ظروفهم وعصرهم . بل إن « أستاذ الجيل » أحمد لطفى السيد - وهو من رواد القومية المصرية المتجردة من النوازع الدينية - قد اشتد على عرابي حين توفي في سبتمبر سنة ١٩١١^(٢) ، ونعى عليه « خروجه على خديو هادىء من غير مصلحة عامة للأمة » ، وعدم تقديره حالة أمتة من القوة والضعف تقديراً صحيحاً ، وجهله بالمقارنة بين قوته الحرية وبين قوة إنجلترا ، وانخداعه ببعض المهيجين الإنجليز ، وبعض كلمات نوابهم الأحرار ... وخططه العسكرية ، وتركه ساحة القتال صحيحاً سليماً طليقاً دون أن يترك نفسه يقتل أو يؤسر ، « وكل ذلك استمرار للخطأ الأول الذى هو

(١) أحمد عرابي الزعيم المفترى عليه (١٩٤٨) .

(٢) الجريدة في ٢١ سبتمبر ١٩١١ (العدد ١٣٧٧) .

الثورة». أفيلام الحبل إذا ما افترسه الذئب متعللاً بشتى الأعذار ؟
حقاً لم تحقق هذه الثورة أهدافها المباشرة الخاصة بالنصدي
للاستعمار وتحديد سلطة الخديو ، فإن نكستهاراجعة إلى تدخل
القوى الخارجية القوية ، وعرقلتها لعملية التطور الداخلى لمصر
والمصريين . هذا إلى انقسام مصر ما بين عرايين وتوفيقيين
وعناصر الانتهازية المحلية ، وما قامت به من أعمال الخيانة والغدر
وبلبلة الخواطر .

ولكن إذا كانت الثورة قد أصيبت بنكستها المؤقتة ، أتراها قد
انطفأت جذوتها بعد الاحتلال البريطانى ؟ إن الحركات التحريرية
المندفعة إلى الأمام لا بد محققة أهدافها فى الوقت المناسب ، مهما
صادفها من عراقيل ؛ ومن المستحيل أن تعود عجالات التاريخ
القهقرى . علاها الركام حقيقة ، ولكنها لم تلبث أن اشتعلت
من جديد بعد أقل من جيل ، ولم يخمد أوارها حتى خرج المحتل
« حاملاً عصاه على كتفه » . ثم أخذت تعوض ما فاتتها بفعل
الأطماع الاستعمارية ، فتلاقت مع جذوات التحرير الأخرى فى
آسيا وإفريقيا ضد العدو المشترك - الاستعمار - الذى كانت قصة
عدوانه تكاد تتشابه فى كل قطر حل فيه ، وأسهمت فى إثارة
الوعى العربى المندفِع صوب الوحدة والتحرر ، بعد أن أفلح

الإنجليز ردحا من الوقت في عزل مصر عن العالم العربى المجاور .
وصفت هذه الثورة المصرية لدى الدوائر الاستعمارية بأنها
(عصيان) لصاحب السلطة الشرعية ، يكمن من وراءه التعصب
الدينى . واستغلت إنجلترا هذه النغمة لتصور تدخلها العسكرى بغير
صورته الحقيقية ، فأوهمت الدول الكبرى وبعض المصريين أنها
إنما تتدخل فى مصر لكي تقرر فيها الأمن والنظام ، وتحافظ على
المصالح الأوروبية وتحمى الخديو . وحين هزمت الثورة لم تجد
فيمن كتبوا عنها كثيرا من الأصدقاء ، سواء فى الداخل أم فى
الخارج . نعى عليها المصريون أنها كانت السبب المباشر للاحتلال
الذى رزح فوق صدورهم . وفى أوروبا لم تجد سوى عدد قليل
من المنصفين ، وسبب ذلك ما أشاعته الصحافة الاستعمارية الإنجليزية ،
وما فى صدور الأوروبيين وشعورهم من تحامل قديم ضد
الشرق وأهله .

ولكن هل طمست هذه النظرات الحقيقة ؟ لقد وجدت
الثورة المصرية إبان اشتغالها بعض المعجبين فى أوروبا : أشاد بها
الأحرار الفرنسيون وقرنوها بثورتهم الكبرى . وقرنها
الأحرار فى إيطاليا بحركتهم الثورية - الاتحادية . وتطوع بعض
الإيطاليين للعمل فى الجيش المصرى ، وإن لم يصل منهم إلى ميدان

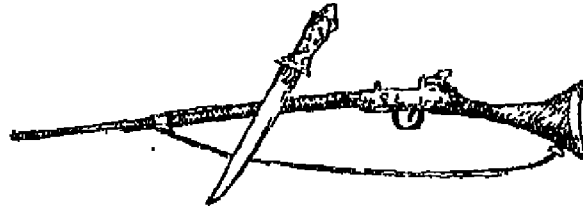
القتال سوى واحد ، وذلك بسبب الإنذارات البريطانية، وتفوق الأسطول الإنجليزي في البحر المتوسط . بل إن الثورة المصرية قد وجدت الأصدقاء في إنجلترا ذاتها، وعلى رأسهم «ولفرد بلنت» الذي عقد صلات الود مع عرابي ومحمد عبده ثم وضع كتابا عن «التاريخ السري للاحتلال الإنجليزي لمصر» (سنة ١٩٠٧) (١) كان في طليعة الكتب التي أنصفت الثورة المصرية ، ولا يزال من أهم مصادرها حتى الوقت الحاضر . بل إن «كرومر» ذاته ، رغم تعامله على المصريين واتهامه لهم في تقاريره المختلفة وفي كتابه «مصر الحديثة» بالجهل والغفلة والتعصب ، لم يسعه في تقريره لعام ١٩٠٤ سوى الاعتراف بأن الثورة المصرية إنما كانت ثورة قومية هدفها مجالبة الظلم . وفي كتاب صدر في عام ١٩٥٤ عن العلاقات المصرية الانجليزية (١٨٠٠-١٩٥٣) حذر الانجليزي «جون مارلو» ساسة بلاده من أن يوجهوا إلى ثورة ١٩٥٢ نفس النظرة والمعاملة اللتين وجههما أسلافه إلى ثورة ١٨٨١-١٨٨٢ . ولكن أترى هذا الإنذار قد حقق غرضه ودفع العدوان ؟ إن الاستثمار المتداعي ينطبق عليه المثل الذي أطلق على أسرة

Secret History of the English Occupation (١)
of Egypt .

«البوربون» الفرنسية بعد ثورة ١٧٨٩ ، حين قيل إنها لا تنسى ولا تفيد من عبر التاريخ .

إن الفكرة القومية كانت كامنة وراء هذه الثورة المصرية لا شك . ولكن الأحداث دفعتها دفعا إلى إقامة العلاقات مع سلطان تركيا الذي أحيا في ذاته خصائص الخلافة الإسلامية ليقوى مركزه كحاكم عثماني . كما دفعتها إلى إثارة الشعور الديني في العالم الإسلامي في إفريقيا وآسيا والدولة العثمانية ، كسبا للأصدقاء وردا لكيد الإنجليز .

وإذا كانت أحداث هذه الثورة معروفة ومصادرها متوفرة فإنما القصد من هذا الكتاب إبراز العنصر القومي فيها ، وتقدير ما أثارته من ردود أفعال في العالم العربي ضد الاستعمار الأوربي ، وربطها بفكرة الجامعة الإسلامية التي كان يروج لها السلطان عبد الحميد (١٨٧٦ - ١٩٠٨) .





« بلادى ... بلادى ... لك حبي وفؤادى » .

(مصطفى كامل)

« وطنى لو شغلت بالخلد عنه نازعتنى إليه فى الخلد نفسى »

(سقوى)

نجد عبده فى مقال نشرته له جريدة « الوقائع » (١) **كتب** التى كان رئيسا لتحريرها، يعرف الوطن والوطنية كما يلى : « الوطن فى اللغة محل الإنسان مطلقا — فهو السكن

(١) عدد ٢٨ نوفمبر ١٨٨١ .

بمعنى : استوطن القوم هذه الأرض وتوطنوها أى اتخذوها سكنا . وعند أهل السياسة مكانك الذى تنسب إليه ويحفظ حقك فيه ويعلم حقك عليه وتأمين فيه على نفسك وآلك ومالك . ومن أقوالهم فيه : لا وطن إلا مع الحرية . وقال «لابرويز» الحكيم الفرنساوى : لا وطن فى حالة الاستبداد ولكن هناك مصالح خصوصية ومفاخر ذاتية ومناصب رسمية . وكان حد الوطن عند قدماء الرومان المكان الذى فيه للمرء حقوق وواجبات سياسية . ثم يقول : أما السكن الذى لا حق فيه للساكن ، ولا هو آمن فيه على المال والروح فغاية القول فى تعريفه إنه مأوى العاجز ومستقر من لا يجد إلى غيره سبيلا ، فإن عظم فلا يسر ، وإن صغر فلا يسوء . قال «لابرويز» السابق الذكر : ما الفائدة فى أن يكون وطنى كبيراً ، وإن كنت فيه حزينا حقيرا ، أعيش فى النذل والشقاء خائفا أسيرا ؟

« على أن النسبة للوطن تصل بينه وبين الساكن صلة منوطة بأهداب الشرف الذاتى — فهو يغار عليه ويذود عنه كما يذود عن والده الذى ينتمى إليه ، وإن كان سيء الخلق شديدا عليه . ولذلك قيل فى مثل هذا المقام ، إن ياء النسبة فى قولنا مصرى وفرنسى ، هى من موجبات غيرة المصرى على مصر ،

والفرنساوى على فرنسا ، والإنكليزى على انكلترا ... فإذا
تقرر ذلك مما قلناه وجب على المصرى حب الوطن من كل هذه
الوجوه : فهو سكنه الذى يأكل فيه هنيئاً ويشرب مريئاً ويبيت
فى الأهل أمينا ، وهو مقامه الذى ينسب إليه ولا يمجى فى النسبة
عاراً ولا يخاف تعيراً . وهو الآن موضع حقوقه وواجباته التى
حصلت له بما أوضحناه من دخوله فى دور الحياة السياسية . - هذا
هو تفسير محمد عبده للوطن والوطنية فى طلائع الثورة . ولا نجد
يشير فيه بكلمة واحدة إلى الرابطة الدينية — إذ القومية الأصيلة
لا تفرق فى داخل الوطن الواحد بين دين ودين أو بين جنس
وجنس . فالروابط الدينية بين الأمم من سمات الماضى البعيد، حين
كانت تشكل العلاقات الاجتماعية برمتها ، وتستثير مكان الولاء
لدى الأفراد بغض النظر عن العوامل الأخرى . والفكرة القومية
التي يعرفها محمد عبده إنما هى ممة من سمات العصر الحديث منذ
الثورة الفرنسية والثورة الأمريكية فى أواخر القرن الثامن عشر،
حين أصبح الدين لله والوطن للجميع .

فالقومية نزعة فكرية وعاطفية توجه ولاء الفرد إلى الأمة .
وارتباط الفرد ارتباطاً وثيقاً بالأرض التى درج عليها ، وبالتقاليد
النابعة منها ، وبالسلطة المقررة فيها أمر معروف فى شتى مراحل

التاريخ . وقد مھمت القومية نسبة إلى القوم الذين يعيش الفرد بين ظھرائهم ، ويشعر بأن كيانہ جزء لا يتجزأ من كيانهم . كما أن الوطنية مشتقة من الوطن الذي يسكنه هؤلاء القوم بأرضه ، وتقاليده ، وتاريخه ، وأمجاده ، وشتى العوامل المادية والمعنوية التي تكونه .

وتعلق الفرد الشديد بالأرض التي درج عليها ، وبالتقاليد التي غرسها فيه ، وبالسلطة التي تنظم حياة الأفراد فيها من الأمور الملموسة بشكل أو آخر عبر التاريخ . ولكن لم يحدث حتى أواخر القرن الثامن عشر أن أصبحت القومية بمعناها الحديث عاطفة مقرررة يزداد توجيهها للنشاط العام والخاص .

فحتى الثورتين الأمريكية والفرنسية — والثانية منهما بوجه خاص — لم تتجه الأذهان إلى ضرورة تكوين المجموعات القومية لدول خاصة بها . فولاء الفرد لم يكن قد اتجه بعد إلى الدولة التي تحوى الأقوام الذين يتجاوب معهم ، بل إن هذا الولاء كان حتى ذلك الوقت يتجه إلى مختلف الأشكال الصغيرة الأخرى ، التي كانت تتخذها السلطة الاجتماعية والتنظيم السياسى والارتباطات المذهبية : كالقبيلة أو العشيرة أو المدينة — الدولة أو السيد الإقطاعى أو الأسرة المالكة أو الهيئة الدينية — كنيسة

كانت أم أى تنظيم دينى آخر فى البلدان التى كان لرجال الدين فيها صوت مسموع فى تسيير الشئون العامة .

والقومية إنما هى من نتاج القوى الحيوية الكامنة فى التاريخ، ومن ثم جاء تطورها المستمر - بل من الصعب أن نجد لها تعريفا جامعا مانعا . فعظم المجموعات القومية لها مقومات خاصة تميزها عن المجموعات الأخرى : كاللغة والأرض والكيان السياسى والعادات والتقاليد (أو الدين) . وبالرغم من أن هذه المقومات لها أهمية كبرى فى تكوين القومية فإن العامل الأساسى فى حفز الشعور بالقومية هو الإرادة الحية النشطة، التى هى نزعة فكرية توجه نشاط الأغلبية العظمى من الشعب . وهذه النزعة تؤكد أن الدولة القومية هى الشكل المثالى الوحيد للتنظيم السياسى ، وأن الشعور بالقومية هو منبع كل الطاقات الخلاقة فى المجال الثقافى وفى مجال الرفاهية الاقتصادية . ووجود إرادة عامة مشتركة لدى مجموع الشعب أو لدى غالبية العظمى من الأمور الحديثة، المرتبطة بتطور المواصلات والطباعة والنشر والصحافة ، ووسائل الربط الحديثة (سلكية أو لاسلكية) التى هى من نتاج التقدم العلمى الحديث . ففي العصور الوسطى والقديمة لم يكن من السهل تجميع هذه الإرادة أو توجيهها أو تعبئتها ، وإن يكن ثمة شعور عام

إزاء العدو أو الأجانب ، وهو الشعور الذى نلحسه مثلا عند قدماء المصريين وعند الإغريق والرومان الذين كانوا يشعرون بتفوقهم ويطلقون على من عداهم اسم « البرابرة » . وحتى وقت قريب لم تكن القومية منبعا للحياة الثقافية : فالتعليم والمعرفة وتكوين عقلية الفرد وشخصيته - كل ذلك لم يتخذ شكلا قوميا فى معظم أحقاب التاريخ . فالدين كان فى عصور كثيرة هو المنبع الأساسى للحياة الثقافية والروحية ، ولم يحدث حتى القرن التاسع عشر بالنسبة إلى أوروبا وأمريكا ، وحتى القرن العشرين بالنسبة إلى آسيا وأفريقيا ، أن ربطت الشعوب أنفسها بالأمة ، والحضارة بالحضارة القومية وحياتها ، وبقاءها بحياة الأمة وبقائها . ومنذ ذلك الوقت هيمنت القومية على دوافع الجماهير ووفرت مبررا لسلطة الدولة ولجوها إلى القوة ، سواء ضد رعاياها أو ضد الدول الأخرى - بلى إن الفيلسوف الألمانى « هجل » Hegel بالغ فى التعبير عن هذا الاتجاه الحديث حين قال : إن الدولة هى الله على الأرض .

ويجمع المؤرخون على أن الثورة الفرنسية هى الأصل فى تشكيل المشاعر القومية الحديثة . قامت هذه الثورة أول ما قامت ضد السلطة الملكية المطلقة ، وضد الفوارق الاجتماعية ، وطغيان

رجال الدين وفسادهم . ولما كانت الطبقة الوسطى (البورجوازية) هي التي تزعمتها ، فقد كان هدفها الأسمى تحرير الفرد من شتى العوائق التي تحول دون تحقيقه لذاته ولطاقاته الخلاقة، ومناداتها بالحريات الدستورية والحكومة المقيدة . ولكن الحكم الملكي المطلق في فرنسا لم يكن قد أعد الشعب ، حين نشبت الثورة في عام ١٧٨٩ ، للحكم الذاتي وتحديد سلطة الحاكم - ومن هنا تطور الأمر في فرنسا إلى استبدال سيادة الشعب المطلقة بسيادة الملك المطلقة .

ونادى كثير من الفرنسيين بالحماسة العامة للوطن ، كما نادوا بإشغال الحوافز القومية وإعدادها للنضال . ولهذا علقت قومية الثورة الفرنسية أهمية خاصة على كون واجبات المواطن وكرامته كامنة في النشاط السياسى ، وعلى أن تأكيده لذاته كامن في اندماجه التام في الدولة القومية . وألغى تقسيم فرنسا القديم إلى أقاليم ومقاطعات ومدن منفصلة، لها قوانينها الخاصة واقتصادها المحلى وموازينها ومكاييلها ، كما ألغى تقسيم البلاد إلى طبقات اجتماعية منفصلة، مما كان يحول دون اندماج الأمة بشتى عناصرها . وهكذا تحققت الوحدة القومية للمرة الأولى ، وفى أغسطس ١٧٨٩ أعلنت « حقوق الإنسان » التي كانت الأساس الذى قام

عليه العهد الجديد: أمة تقوم على أفراد أحرار يحميهم القانون. وبعد اشتداد الخطر الخارجى الذى تهدد الثورة من جانب الملكيات والرجعية الأوروبية ، أصبح ولاء الفرنسى لوطنه يتطلب إرادة عامة (هى التى كان قد نادى بها المفكر المشهور جان جاك روسو) تبنى قبلها المصالح والإرادات الخاصة ، ففرض التجنيد الإيجابى *la levée en masse* لأول مرة فى التاريخ ، وأصبح الجيش الفرنسى جيشا قوميا بالمعنى الصحيح ، وليس جيشا يقوم على مجندين محترفين يدينون بالولاء لشخص الملك. وعيىء الرجال وعبئت الصناعة ووجه الكتاب والفنانون إلى إشعال حماسة الأفراد ، ونجحت إرادة الشعب ودفع الخطر الخارجى وانتصرت فرنسا الثورية .

وانتقلت إشعاعات الثورة الفرنسية إلى أوروبا وخارج أوروبا ، وكانت مسئولة إلى حد كبير عن الحروب الاستقلالية التى زخر بها تاريخ القرن التاسع عشر . وكان الكتاب والشعراء يغذون فكرة القومية الجديدة التى أثارها الثورة بما أشاعته من التعاليم الديمقراطية ومن روح الحرية التى أيقظت الشعور القومى فى شعوب طال عليها أمد الخنوع لظلم حكامها أو للاستعمار الأجنبى . وارتفعت قيمة التضحية بالجهد والمال وبالروح فى سبيل مجد

هذا الوطن الذى اتجهت إليه عواطف الناس ، وكانما هو
معبود جديد هداهم إليه نبى جديد . وكان لمصر نصيب من هذا
الاتجاه الجديد ، بدأ خافقنا ثم مالبت أن أثر فى تاريخها الحديث
تأثيرا جوهريا .

جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر فى عام ١٧٩٨ بقيادة نابليون
بوناپرت ابن الثورة ، وقصدها قطع الطريق بين إنجلترا وبين
مستعمراتها فى الشرق ، وإقامة مستعمرة فرنسية فى مصر . وحاول
نابليون فى مصر أن يخاطب المصريين بلغة الثورة الفرنسية
الداعية إلى الحرية والإخاء والمساواة ، وأن يشير فيهم أمجاد مصر
القديمة ، عله بذلك يستطيع أن يكسب قلوبهم إلى صفه . كما حاول
الاتصال ببعض الأمراء المسلمين فى شمال إفريقيا وفى الشرق .
ولكن الشرق الإسلامى لم يكن حينئذ على استعداد للاستماع
إلى هذه النغمة - إذ المشاعر الدينية كانت لا تزال قوية - واستاء
المصريون من الحكم الفرنسى ، وثاروا عليه ثورات عارمة طيلة
السنوات الثلاث التى أقامها الفرنسيون فى البلاد .

وكان الوعى العام فى مصر قد تنبه قبيل وصول الحملة
الفرنسية ، فقام الشعب فى أطراف شتى من القطر فى وجه الظلم
المملوكي ، وطالب زعماءه بنشر العدل وإنهاء الظلم وإلغاء

الضرائب المتعسفة. وتم للزعماء ما أرادوا، وأصبح صوتهم مسموعاً أكثر من ذي قبل، وبذلك تمهد السبيل للزعامة الشعبية التي تصدت لتوجيه الشعب ضد الفرنسيين، ثم برزت إلى حيز الوجود دفعة واحدة بعد جلائهم ولعبت دورها الكامل في تولية محمد علي « بشروط الشعب » وعاونته في الفترة القلقة من أوائل حكمه . ولكن حين استقر الأمر لمحمد علي شئت هذه الزعامة الشعبية ونفى أبرز رجالها السيد عمر مكرم إلى دمياط (١٨٠٩) ثم إلى طنطا .

ومما يجدر ذكره بصدد هذه الزعامة الشعبية أنها كانت زعامة دينية . وربما كان ذلك راجعاً إلى المركز الاجتماعي الذي تبوأه رجال الدين في المجتمع الإسلامي الوسيط ، وقيامهم في كثير من الأحيان بالوساطة بين الحاكم والرعية . على أنها في الفترة القصيرة التي برزت فيها قد قصرت همها على محض الذب عن الناس : فلم تسم إلى أبعد من تصورات الشرق في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، ولم تهدف إلى استقلال واضح أو تبين نظرة جديدة - وسرعان ما شتتها وقضت عليها إرادة محمد علي الواعية التي حولت مجرى تاريخ مصر الحديث . على أنه قد وجد من تأثر بالفرنسيين تأثراً مباشراً كالجنرال

(أو المعلم) يعقوب الذى عاش وحارب فى صفهم وأشرب أفكارهم واتجاهاتهم وآمن بمبادئ الثورة الفرنسية ، فرحل عن مصر بعد جلاء الحملة مزمعا عرض قضية استقلال البلاد عن تركيا على العواصم الأوروبية . ولكنه مات فى الطريق فقبر مشروعه ، وإن يكن مجرد تفكيره هذا فى بداية القرن التاسع عشر مما يثير الالتفات ؛ إذ هو خارج على مألوف الناس حتى ذلك الوقت — فتعلق المصريين بروابط التبعية لتركيا — باسم الدين — من الأمور العادية . ويعقوب أول مصرى فهم القضية المصرية بمعناها الحديث ، إذ أدرك معنى الصراع الفرنسى — الإنجليزى على البلاد ؛ وأنه لكي يكتمل استقلال مصر لابد من أن تضمنه الدول الكبرى . وبرر يعقوب طلب الاستقلال بالتبويه بمجد مصر ، وبأن عظمة الماضى تبعث على الأمل فى عظمة المستقبل ، وبأن مصر بها من الموارد ومن المال والرجال ما يكتفى لقيام الدولة المستقلة ، وبأن موقعهما الجغرافى يجعلها موصعا للتنافس ، وأن الدولة التى تسيطر عليها تصبح من القوة بحيث تتحكم فى مصير الدول الأخرى — وخير للجميع أن تستقل مصر .

وتحت حكم محمد على (١٨٠٥ — ١٨٤٨) أقيمت بذور القومية المصرية بمعناها الحديث : قومية ذات مفهوم علمانى لادىنى

وإن يكن المفهوم أن قد سارا جنباً إلى جنب حتى أوائل القرن العشرين، حين حدد أحمد لطفى السيد على صفحات الجريدة معنى القومية المصرية المجردة تماماً عن النوازع الدينية والارتباط بتركيا وبحركة الجامعة الإسلامية، مما سنعرض له فيما بعد .

ففى عهد محمد على وضعت نواة الجيش الوطنى الذى أعاد إلى المصريين بعض ثقتهم بأنفسهم، بعد خضوعهم الطويل لحكم الأجانب الذين حرموا على المصريين حمل السلاح، واعتمدوا على قوات أجنبية؛ ومن ثم تلك الفرية التى ألصقت بشعب مصر ظمناً وعدواناً من حيث أنه غير جدير بحمل السلاح، وهى الفرية التى أثبت المصريون فى عصر محمد على أنها واهية لا تستند إلى أساس. وتشكل التعليم الوطنى منفصلاً عن التعليم الدينى القائم فى الأزهر، وبدأت تبرز الدواوين والإدارات الجديدة، وتقوم مالية الدولة الإنشائية، ويتوفر للبلاد الاستقرار الذى لا بد منه لتطور ونمو الأفكار والمشاعر ومنها القومية. وأرسلت البعثات واستقدم الأوربيون المتخصصون، وترجمت الكتب، وفكت طلاس اللغة الميروغليفية وكشفت معالم تاريخ البلاد القديم، ونشر ما كتبه الأوربيون عن مصر والمصريين وترك المصريون بلادهم — على تعلقه بها — وقام بشق الجهود التى وكلت إليه فى المجال الحربى

وفى مجال الارتياح فى إفريقيا والشرق الأدنى ، فشعر بآلام
الاغتراب، وتعلق بالوطن الحبيب الذى أصبحت له منزلة سامية فى
ذلك الوقت . كل ذلك ساعد على خلق وعى يربط بين المصريين
وبلادهم ، وأوحى بآمال جديدة مستقاة من روح الثورات
الأوربية التى انتقل إلينا تاريخها وأثرها فيما نقلته حركة الترجمة
والبعثات . فثلاث نجاد رفاعة الطهطاوى - الذى شهد أحداث
ثورة يوليو ١٨٣٠ وهو بفرنسا - يتأثر بهذه الثورة
وبدستورها وما اشتمل عليه من حريات ، ويكتب - حين
يعود إلى مصر - فى الوطنية والتاريخ المصرى القديم وواجب
العمل على رفاهية مصر . ونجد أيضاً أن على مبارك - الذى كان
من أعضاء البعثات أيام محمد على - يستعمل بعد رجوعه لفظ
«مواطن» للتفرقة بين المصريين وغيرهم . ومن ثم كان المبشرون
بهذه الدعوة الجديدة فى مصر متأثرين تأثراً واضحاً بالتفكير
الأوروبى . بل إن عرايا ذاته - الذى قرأ تاريخ نابليون أثناء
رحلة له مع سعيد باشا إلى الحجاز - استعمل لفظى المصريين
والأمة المصرية بمعناها الحديث .

وفى عهد محمد على أيضاً امتدت نفوذ مصر فى إفريقيا
والشرق الأدنى ، وانتشرت الحماسة للجيش المصرى المتقدمة

في الشام وآسيا الصغرى ، وتكلم محمد على عن ملك عربي
يشتمل على ولايات الإمبراطورية العثمانية التي يتكلم أهلها اللغة
العربية . وهكذا أخذت تنمو فكرة القومية بمعناها الحديث ،
وإن يكن نموها بطيئاً ، بسبب ضيق نطاق الحركة التعليمية
والثقافية ، وعدم استيعابها لقطاعات شاسعة من المواطنين ، مما جعلها
لا تثبت أمام المشاعر الدينية التي طغت عليها في إبان الأزمات ،
خاصة بعد اشتداد الأطماع الاستعمارية في العالم الإسلامي ، وظهور
فكرة الجامعة الإسلامية كرد فعل ضد هذا الاستعمار . فمثلاً
نجد أن مصطفى كامل ومحمد فريد يدينان بفكرة الجامعة
الإسلامية والولاء لسلطان تركيا . ولكن كتابات لطفى السيد
على صفحات « الجريدة » كانت بداية التحول في التفكير
السياسي المصري ، وبداية التبلور الكامل لفكرة القومية المستندة
إلى الفهم الصحيح للشعب ومقوماته كمجموع ، له مثله الخاصة
وتفكيره الخاص واتجاهه النابع من أصوله الذاتية أبعد مذهب
في التاريخ ، دون خلط بين هذه المقومات والدين . وقد عرضت
« الجريدة » لفكرة الجامعة الإسلامية ، وبيّنت أنها غير ملائمة
للعصر ، ولا متفقة مع النمو الذاتي المستقل للشعب المصري . لهذا
لم يكن عجباً أن يتم المتزمتون « الجريدة » بمائة الإنجليز

وتوجيه الطعن إليها ، واتهام كتابها بالكفر بالدين ، ومحاولتها أن تدخل إليه بدعا . ومعظم ذلك راجع إلى عدم تأييدها تبعية مصر لتركيا ، الأمر الذي كان غريباً على الجمهور ، وإن لم يكن غريباً على الصفوة المثقفة التي كانت تريد للبلاد استقلالاً وحياة نياية .

وظهر ما كانت تبشر به « الجريدة » واضحاً أثناء ثورة ١٩١٩ التي قامت البلاد أثناءها قومة رجل واحد ، ولم تظهر فيها نعرات دينية أو طائفية ، بل اجتمعت الأمة على محاربة المحتل ومطالبته بالجلاء تحقيقاً لاستقلال البلاد . حينئذ كانت تركيا قد انهزمت ، ثم ما لبثت أن ألغيت الخلافة على يد الكمالين ، فلم يعد ثمة ما يثير المشاعر الدينية كقوة سياسية خارجية ، وإن يكن المصريون قد حزنوا حزن غيرهم من المسلمين لاختفاء الخلافة . وجاءت القومية العربية لتملأ الفراغ الذي تركته حركة الجامعة الإسلامية ، وكذلك شأن تضامن القوميات الإفريقية والآسيوية المستقلة حديثاً عن الحكم الاستعماري ، وتلك التي لا تزال تشق طريقها نحو الاستقلال .

حركة الجامعة الإسلامية

« واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا »

قرآن كريم

« المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضاً »

حديث شريف

في رأى الفقهاء أن الإسلام دين ودولة. فقد جاء القرآن محددًا القول الفصل في المشكلات التي عرضت للمسلمين . فهو دستورهم وقانونهم المدني ومرجعهم الأعلى ، وهو يتطلب الطاعة لله والرسول وأولى الأمر ، وإن كان يحدد هذه الطاعة في حدود الشرع . والنبي ذاته كان قائداً للمسلمين وحاكماً للدولة الإسلامية بعد قيامها ؛ كما أنه زعيم ديني وقاض ورجل إدارة وواعظ وإمام للصلاة في نفس الوقت . كذلك كان الحال أيام الخلفاء الأربعة ، وإن وضح في أيامهم أن الحياة السياسية كانت شورية بحيث لا يستأثر خليفة النبي وحده بشئون الإدارة والفقه والقضاء ؛ إذ المسلمون الأول كانوا يعتبرون الإسلام مجموعة من العقائد وقانون أعمال أكثر من أن يكون

يا سياسيا . وكان الخليفة يحيا حياة بسيطة ولا يدعى لنفسه
زقا خاصة - يعبر عن ذلك قول أبي بكر : « لقد وليت
كم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن
تفقموني » .

وكان الطابع الديوى هو الغالب على دولة بنى أمية ، فهى
حكم وسياسة وحرب ومطامع ملكية - إمبراطورية . كما
الحكام من بنى أمية قد نبذوا مبدأ الشورى وإن حافظوا
من حيث الشكل ، وجعلوا الملك وراثيا فى أسرهم ، وأحاطوا
سهم بالحرس والحجاب والأبهة ، وسكنوا القصور ، فأصبحت
دولة « هرقلية » كما سماها العرب .

وجاء العباسيون إلى الحكم نتيجة ادعائهم أنهم حماة الدين ،
يبدونهم للساخطين على ممثلى الارستقراطية العربية الجاهلية
يعة التى اغتصبت العرش . وهكذا كان حلول العباسيين محل
ويين إنما يعنى حلول حكم إسلامى عام محل الحكم العربى
ص . ولما كانت الدولة قد اتسعت ووصلت فى أوجها من المحيط
المنطى إلى مشارف الهند والصين ، كان لابد من استشارة
السكان ، الذين كانوا يتكونون من جنسيات مختلفة ، عن طريق
رة عامة تلتقى قبولا عند الجميع ، خاصة فى المناطق التى لا تكون

قبضة الدولة فى
تعديل مرده
ومن المعروف
ومن آثار ذا
« وسلطان اد
لتأكيد ضر
أم ظالما . ومن
الذى قضى أ
ويسخر علمه
وتعلق الخلفاء
ضعفت قوتهم
الخلافة ذات
الأرض قد
عام ١٢٥٨ م
العالم الإسلامى
مصر المملوكية
قامت خلافات

قبضة الدولة فيها قوية ؛ ومن ثم ما أصاب مفهوم « الخلافة » من تعديل مرده إلى المؤثرات الفارسية المنقولة عن « الكسروية » . ومن المعروف أن الخلافة العباسية قد قامت على أكتاف الفرس ، ومن آثار ذلك تسمى الخليفة باسم « ظل الله على الأرض » « وسلطان الله على الأرض » . ووفق الفقهاء يجمعون الأسانيد لتأكيد ضرورة طاعة الخليفة طاعة مطلقة ، سواء أكان عادلا أم ظالما . ومن شهداء هذا الاتجاه الفقيه الشهير أبو حنيفة النعمان الذي قضى أواخر حياته في السجن وعذب ، ولكنه لم يثن ويسخر علمه لخدمة قضية الخلافة العباسية بأسانيد مبتوره . وتعلق الخلفاء العباسيون بهذه السلطة الروحية ، خاصة حين ضعفت قوتهم الزمنية واستأثر الأتراك بالحكم الفعلي . وظلت الخلافة ذات قداسة لدى المسلمين ، حتى أنهم تصوروا أن محور الأرض قد اختل أنزانه ، حين استولى التتار على بغداد في عام ١٢٥٨ م ، وقتلوا المستعصم آخر الخلفاء العباسيين . وما لبث العالم الإسلامي أن أحس بضرورة إحياء الخلافة ، فانتقلت إلى مصر المملوكية بعد سنوات قلائل من اختفائها ، وإن تكن قد قامت خلافات أخرى في أماكن أخرى من العالم الإسلامي . وبذلك

اكتسبت مصر أهمية خاصة في العالم الإسلامي وإن لم يكن للخليفة من الأمر شيء .

ولما فتح العثمانيون مصر في عام ١٥١٧ م انتقل الخليفة العباسي إلى الأستانة عاصمة الدولة العثمانية ، وإن كان ثمة شك في تنازله عن الخلافة للسلطان سليم . ولم يكن لقب الخلافة ذا أهمية كبرى في البداية لدى سلاطين آل عثمان ، وإن يكن السلطان سليم قد اعتز بلقب « حامى الحرمين الشريفين » الذي خلعه على نفسه بعد احتلاله لدمشق في عام ١٥١٦ م ، وكان من ألقاب السلاطين المماليك . فالدولة العثمانية في أوج عظمتها وقوتها لم تكن بحاجة إلى تبرير سلطتها المستندة إلى قوة السلاح - حتى إذا ما أخذ الضعف يدب في الدولة ، وأخذت أوروبا تطمع في أملاكها بدأ هذا اللقب يظهر من جديد ، خاصة في عهد السلطان عبد الحميد الثاني الذي أدمج لقب الخلافة في بداية عهده (١٨٧٦) في الدستور الذي أعلنه على رعاياه . فقد جاء عبد الحميد إلى الحكم في زمن اضطرابات وكوارث : أعلنت الثورة في المرسك والبوسنة وبلغاريا (في البلقان) ودخلت الدولة في حرب مع الصرب والجبل الأسود (في البلقان) ثم ما لبثت أن تعرضت للغزو الروسي (١٨٧٧) ، ولما هزمت انتزعت منها أملاك شاسعة في البلقان بمقتضى صلح

برلين (١٨٧٨) ، ووضعت انجلترا ايدها على قبرص . كما استقر رأي الساسة في برلين ، على أن تكون تونس من نصيب فرنسا ، وعلى أن تكون مصر شركة بين انجلترا وفرنسا .

وكان لهذه السكوارث أثرها في العالم الإسلامي الذي اشتعل فيه السخط على العدوان الأوروبي - بل قيل إن جمال الدين الأفغاني قد أوقف دروسه في مصر أثناء الحرب الروسية التركية إظهارا لحزنه وجزعه على مصير آخر ما تبقى من الدول الإسلامية القوية . وكان عبد الحميد يخشى أن تتوجه ضده موجة الكره لأوروبا إذا لم يشجع في استغلالها - فهو قد اضطر ، بعد الهزائم التي اتسمت بها بداية عصره ، وبعد أن ترك لأوروبا المسيحية كثيرا من أملاكه في أوروبا ، إلى أن يهتم اهتماما خاصا بالجانب العربي من أملاكه ، خاصة وأن العرب ما برحوا يحتقرون الترك ويتطلعون إلى الاستقلال ؛ إذ العرب لم يهضموا تماما فكرة أن يكون خليفتهم في تركيا لا يعرف اللغة العربية . وكان أخشى ما يخشاه السلطان عبد الحميد أن تنتشر هذه الفكرة ، خاصة وأنه كان يشك في وجود اتجاه لإنشاء مملكة عربية مستقلة في مصر وسوريا ، ويخشى قيام خلافة عربية في مصر ، إذ لو تحقق شيء من هذا لتأثرت الدولة العثمانية تأثرا شديدا - فهي ستصبح

دولة تركية بمحطة ، ويضعف مركزه هو بصفته خليفة المسلمين .
لهذا اتجه عبد الحميد إلى استغلال موجة السخط على أوروبا في
أملاكه وفي خارجها . فهو يرسل البعثات الدينية إلى كل مكان
لتوحيد المسلمين خاصة في آسيا وإفريقيا ، ويثبت مركز خلافته ،
ويسعى إلى الحصول على اعتراف المسلمين خارج الحدود التركية ،
وإقناعهم - في مصر وتونس والهند وأفغانستان وجاوه والصين
- بأنه لم يزل في الوجود خليفة للإسلام .

وأحرزت حركة الجامعة الإسلامية نجاحا كبيرا ، يرجع إلى
التيار العام لشعور الجامعة الإسلامية أكثر من رجوعه إلى قوة
لقب الخلافة . فعبد الحميد يؤكد زعامته الروحية للعالم الإسلامي
بدلا من تأكيد زعامته السياسية باعتباره رئيسا للدولة التركية ،
ويحاول استغلال هذا اللقب في تخويف الدول الأوروبية التي
تفكر في نوايا عدوانية ضد الإمبراطورية العثمانية . ولم تلبث
الاستانة أن أصبحت مكة أخرى يحج إليها زعماء المسلمين ،
وخاصة من يكتنون منهم العداء للغرب .

حينئذ كانت الأطماع الأوروبية قد بدت واضحة للعالم
الإسلامي ، ولم تكن تخلو من نزعات دينية هي في الواقع من
مخلفات الروح الصليبية القديمة . فأوروبا التي تعطف على الشعوب

المسيحية الخاضعة لسلطان تركيا ، لا تتورع في نفس الوقت عن استعمار بلاد المسلمين في الشرق والغرب . وقع السلطان للثورات التي تنشب في أملاكه « بربرية » و « همجية » ، والسلطان ذاته « شيطان » وعدو للإنسانية والحضارة والمسيح ، على حين أن احتلال أوروبا لأملاكه شيء مخالف لذلك تماما : إعادة للأمن والنظام ونشرا للحضارة !

وأدت هذه التطورات إلى انكماش المشاعر القومية في العالم العربي إزاء المشاعر الدينية الإسلامية ، وخاصة بعد احتلال الإنجليز لمصر (١٨٨٢) . وقد سبق أن رأينا أن عهد عبده كان مؤمنا بالفكرة القومية في بداية الثورة المصرية . ولكنه لم يلبث أن انقلب إلى الدعوة للفكرة الإسلامية ، خاصة على صفحات جريدة « العروة الوثقى » ، التي كان ينشرها في باريس بالاشتراك مع جمال الدين الأفغانى . كتب فيها مقالا عن « ماضى الأمة وحاضرها وعلاج عللها » ، تكلم فيه عما آل إليه أمر المسلمين من تأخر وانحطاط ، واستعرض آراء المصلحين فقال : إن بعضهم يظن أن أمراض الأمم تعالج بنشر الصحف ، وأنها تسكف لإنهاض الأمم وتنبيه الأفكار وتقويم الأخلاق ، وإن فريقا آخر يرى أن شفاءها من هذه العلل يتم بإنشاء المدارس الحديثة على

النمط الأوروبي حتى تم المعارف جميع الأفراد . وبعد أن تقد
الرأيين أثبت رأيه الذي يذهب فيه إلى أن انتشار الأمة الإسلامية
مما هي فيه من ضعف لا يتم إلا عن طريق الدين ، وبين أن
التعصب للجنس (الوطنية) إنما يروجه الإفرنج الذين يريدون
أن يهدموا بناء الملة الإسلامية ، ويفرقوا بين شعوبها ليسهل عليهم
استعمارها ، وأن « المغفلين » من المسلمين — حسب رأيه —
الذين اتبعوا هذه الدعوة « الحبيثة » قد هدموا العصبية الدينية ،
ثم لم يستطيعوا أن يقيموا مكانها العصبية الجنسية التي يسمونها
الوطنية .

وعبر جمال الدين الأفغانى عن رأى العالم الإسلامى فى العدوان
الأوروبى واتهام الأوربيين للمسلمين ، بالتعصب حين أنحى باللائمة
على من يمجدون التعصب للوطن ويحطون من شأن العصبية الدينية ،
ورما هم بالغفلة ، وبأنهم أبواق المستعمر الذى يحاول توهين العصبية
الدينية ليقطع الرابطة التى تجمع بين شعوبها ، ويدلل على كذب
المستعمرين وتدليسهم بأنهم أكثر الناس عصبية للدين فيما تجرى
عليه سياستهم . فالمسلمون — عنده — لا يعتقدون برابطة
الشعوب وعصبيات الأجناس وإنما ينظرون إلى جامعة الدين ،
« لهذا ترى العربى لا ينفر من سلطة التركى ، والفارسى يقبل سيادة

العربي ، والهندي يذعن لرياسة الأفغاني ، ولا التمزاز عند أحد منهم ولا انقباض . وإن المسلم في تبدل حكوماته لا يأنف ولا يستنكر ما يعرض عليه من أشكائها ، وانتقالها من قبيل إلى قبيل ما دام صاحب الحكم حافظاً لشأن الشريعة ذاهباً مذهبها . وما هذا — في رأيه — بغريب على المسلمين « فإن رابطهم الدينية مع رابطة اللسان أقوى من الروابط الجنسية ما دام القرآن يتلى بينهم ويعمل بأحكامه وفي آياته ما لا يذهب على أفهام قارئيه فلن يستطيع الدهر أن يذلهم » . وقد أبدى جمال الدين أله لاحتلال الإنجليز لمصر ، وإذا استعرضنا قوله بهذا الصدد تبيننا تماماً أثر العدوان الأوروبي في إشعال الحماسة لفكرة الجامعة الإسلامية ، ومكانة مصر في العالم الإسلامي : « إن الحالة السيئة التي أصبحت فيها الديار المصرية لم يسهل احتمالها على نفوس المسلمين جميعاً . إن مصر تعتبر عندهم من الأراضي المقدسة ، ولها في قلوبهم منزلة لا يحلها سواها ؛ نظر الموضعها من الممالك الإسلامية ولأنها باب الحرمين الشريفين . فإن كان هذا الباب أميناً كانت خواطر المسلمين مطمئنة على تلك البقاع ، وإلا اضطربت أفكارهم وكانوا في ريب من سلامة ركن عظيم من أركان الديانة الإسلامية » .

« إن كان الخطر الذى ألم بمصر قد نغرت له احشاء المسلمين
وتكلمت به قلوبهم ، ولن تزال آلامه تستفزهم ما دام الجرح
نغارا ... إن الفجعية بمصر حركت أشجانا كانت كامنة وجددت
أحزاننا لم تكن فى الحسبان ، وسرى الألم فى أرواح المسلمين
سريان الاعتقاد فى مداركهم ، وهم من تذكّار الماضى ومراقبة
الحاضر يتنفسون الصعداء . ولا نأمن أن يكون التنفس زئيرا
- بل نفيرا عاما - بل يكون صرخة تمزق مسامع من أصممه
الطمع » .

وقال عبد الله نديم معبرا عن أثر العدوان الأوروبى فى
تقوية فكرة الجامعة الإسلامية : « ولو كانت الدولة العثمانية
مسيحية الدين لبقيت بقاء الدهر بين تلك الدول الكبيرة
والصغيرة التى هى جزء منها فى الحقيقة . ولكن المغايرة وسعى
أوروبا فى تلاشى الدين الإسلامى أوجب هذا التحامل ، الذى
أخرج كثيرا من بمالك الدولة بالاستقلال أو الابتلاع . وإنا
نرى كثيرا من المغفلين
يذمون الدولة العلية ، ويرمونها بالعجز وعدم التبصر وسوء
الإدارة وقسوة الأحكام . ولو أنصفوها لقالوا إنها أعظم
الدول ثباتا وأحسنها تبصرا وأقواها عزيمة . فإنها فى نقطة

ينصب إليها تيار أوروبا العدواني ؛ لأنها دولة واحدة إسلامية بين ثمانى عشرة دولة مسيحية غير دول أمريكا ، وتحت رعايتها جميع الطوائف والأجناس والأديان وكثير من اللغات . والفتن متواصلة من رجال أوروبا إلى من يماثلهم مذهباً أو يقرب منهم جنساً . وكل دولة طامعة فى قطعة أرض تحتلها باسم المحافظة على حدودها أو وقاية دينها ... وهذه أمور لو ابتليت بها أعظم دول أوروبا ما قاومت هذه الصواعق أكثر من عام أو عامين وتسقط أو تتلاشى » .

ويدعو مصطفى كامل إلى الالتفاف حول السلطان العثمانى خليفة المسلمين بقوله :

« فواجب العثمانيين أن يجتمعوا جميعاً حول راية السلطنة السنية ، وأن يدافعوا عن ملك بلادهم بكل قواهم ، ولو تفانى الكثيرون منهم فى هذا الغرض الشريف ، حتى يعيشوا أبداً الدهر سادة لا عبيداً . وواجب المسلمين أن يلتفوا أجمعين حول راية الخلافة الإسلامية المقدسة ، وأن يعززوها بالأموال والأرواح ، فى حفظها حفظ كرامتهم وشرفهم وفى بقاء مجدها ورفعتهم ورفع العقيدة الإسلامية المقدسة » .

ويقول مصطفى كامل فى معرض الكلام عن جنسيته إنه

« مصري عثماني » وإنه « ليس في الأمر جنسيتان » بل في الحقيقة جنسية واحدة ؛ لأن مصر بلد تابع للدولة العلية .

بل إن محمد عبده يبالغ فيقول : « إن المحافظة على الدولة العلية العثمانية ثلاثة العقائد بعد الإيمان بالله ورسوله ، فإنها وحدها المحافظة لسلطان الدين الكافلة لبقاء حوزته . وليس للدين سلطان في سواها . وإنا والحمد لله على هذه العقيدة ، عليها نحيا وعليها نموت » .

كذلك أيد فكرة الجامعة الإسلامية عامة الناس الذين لا يعرفون لهم رابطة غير رابطة الدين ، ولا يعرفون لهم راعيا غير الخليفة إمام المسلمين ، ولا يعرفون ما الوطن والوطنية . وقد كانت هذه الكلمات وأمثالها وقتئذ من مستحدثات الشباب الذين تعلموا في أوروبا ، ومن ثم كونها محلا للطعن مما سبق أن أشرنا إليه بصدده ما كان يكتبه لطفى السيد على صفحات « الجريدة » .

هذا فيما يتعلق بفكرة الجامعة الإسلامية بعد احتلال الإنجليز لمصر والفرنسيين لتونس . ولكن تفكير المثقفين في مصر قبيل الاحتلال كان متأثرا بالفكرة القومية ، وإن

تكن هناك صحف أخرى تنادى فى أثناء الثورة المصرية بفكرة
الجامعة الإسلامية، وتحض على محاربة الأورويين . وحين اشتدت
الثورة وتعرضت البلاد للأخطار اندمج الاتجاهان معا فى محاولة
عامة للوقوف فى وجه المعتدين .



الحركة القومية في مصر مصر للمصريين

تتمثل المشاعر العامة عادة حين التعرض للخطر الخارجي أو الشعور بالظلم الداخلي ، ويكون من الممكن أن تنظم هذه المشاعر وتوجه لو توفر لها الوعي والقيادة الرشيدة . ولقد شعر المصريون بالظلم في عهد محمد علي ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يعبروا عن سخطهم بأكثر من المقاومة السلبية في مجالي الزراعة والصناعة - وإن يكن المتعلمون منهم قد أدركوا قيمة العهد الجديد وماحققه لمصر، فكانوا يشيرون إلى الحاكم باسم (ولى النعم) . ولكن خلفاء محمد علي لم يكونوا على شاكلته : فهم قساة على أهل البلاد ضعاف مع الأجانب . كانوا يحقرون المصري ولا يعتقدون أنه صالح للمشاركة في الحكم والإدارة ، وإن وكلوا إليه القيام بالأعمال الروتينية البسيطة في السلك الحكومي ، واعتمدوا في سند سلطتهم على أخلاط من الأوروبيين والأتراك والشراكسة ، ممن لا يستندون إلى عصبية محلية بحيث تسول لهم أنفسهم أن يعارضوا الحاكم .

واشتد الظلم في عصر اسماعيل بوجه خاص ، وبخاصة بعد ان تراكت عليه الديون التي استعدي أصحابها الدول الأوروبية عليه وعلى اهل البلاد . فقد أصبحت البلاد في أواخر عهده عرضة للضغط الأجنبي ، وانعكس ذلك في اصطناع القسوة في جمع الضرائب ، مما أدى إلى قيام الأهالي بالثورة المسلحة في الصعيد . وكان الحاكم ذاته قاسياً ، فأزهقت الأرواح في عهده دون محاكمة ، وأرسل الناس إلى أقاصى السودان دون محاكمة ، وكتب عليهم أن يقضوا بقية حياتهم هناك . وسيق الناس لبناء قصور الوالى ومنشئاته عن طريق السخرة التي سبق أن لجئء إليها في حفر قناة السويس في عهد سلفه سعيد . وكان استعمال الكرباج من الأمور المألوفة حين جمع الضرائب . بل إن إحدى السيدات ماتت بعد ضربها بالكرباج في إحدى القرى ؛ لأنها لم تستطع دفع حوالى أربعين قرشا كانت مستحقة على زوجها المهرب ١١ وسلطة الوالى قانون لاراد لقضائه : فهو ينفى ويعدم ويسجن ويصادر الأملاك حسب ماتسوله له أهواؤه ، وهو السبب الرئيسى فى الولايات التى ألت بالبلاد بسبب إسرافه وتعجله ووقوعه فى براثن المحتالين والمناققين والدجالين . ومرد ذلك كله إلى الحكم المطلق ومساوئه .

ولم تكن معارضة سلطة الحاكم بالأمر المين في ظل هذه الظروف ، إذ الخوف يخيم على الناس ، وبطش الحاكم يعرقل ظهور القيادات اللازمة للتوجيه العام . ولكن مصر دخلت دورا جديدا من تاريخها منذ أن وفد عليها جمال الدين الأفغانى فى عام ١٨٧١ .

جمال الدين من تلك الشخصيات العظيمة التى تسرع بخطى التاريخ إلى الأمام ، بدل تركها تسير فى مجراها الطبيعى . كان يكره الاستعمار منذ أن اصطدم به فى أفغانستان والهند ، كما كان يكره طغيان الحكام الذين مهدوا للاستعمار التغلغل بأنانيتهم وجهلهم ، ونادى بتقيد سلطتهم بالدساتير ورقابة الشعب . وقد اجتذبت آراؤه وشخصيته فى مصر الصفوة المفكرة التى غرس فيها معانى الحرية والنخوة والثورة . وفسر الأدب تفسيراً جديداً : فهو لا بد أن يخدم الشعب فيطالب بحقوقه ويدافع عن ظلمه ، ويهاجم من اعتدى عليه أيا كان ، ويبين للناس سوء حالهم ومواقع بؤسهم ، ويبصرهم بمن كان سبب فقرهم ، ويخرجهم على أن يخرجوا من الظلمات إلى النور ، وألا يخشوا بأس الحاكم - فليست قوته إلا بهم ، ولا غناه إلا منهم ، وأن يلحوا فى طلب حقوقهم المغصوبة وسعادتهم المسلوقة . وهكذا نجده

يخرج على الناس بأدب جديد ينظر للشعب أكثر مما ينظر للحاكم ،
وينشد الحرية ويخلع العبودية ، ويفيض في حقوق الناس
وواجبات الحاكم ، ويجعل من الأديب مشرفا على الأمراء ،
لا سائلا يمد يديه للأغنياء .

وأخذ جمال الدين يدرّب الشباب على الكتابة ، ويوحى
إليهم بالمعاني الجديدة التي يكتبونها ، ويشجعهم على إصدار
الصحف التي تتصدى للكتابة في الموضوعات التي تمس حياة الأمة
في صميمها . فشجع أديب إسحق على أن ينشئ « جريدة « مصر »
التي كان جمال الدين يرسم له خطة السير فيها ، ويكتب بنفسه
مقالاتها باسم مستعار ، كما شجعه على إصدار صحيفة « التجارة » .
وأخذت هاتان الجريدتان تنشران ما يوضح مبادئ الوطنية ،
ويعرف الناس بأصول المبادئ الحرة . وأصدر ميخائيل
عبد السيد - بإيحاء من جمال الدين - جريدة « الوطن » ذات
الصبغة السياسية الأدبية التي انضمت إلى شقيقاتها قبل الاحتلال
وبعده في تعزيز الحركة الوطنية ، وشجع يعقوب صنوع على
إنشاء مجلة هزلية اسمها « أبو نضارة » التي كانت أولى الجرائد
العربية التي تكتب بأسلوب عامي فكاهي ساخر ، وانتقدت التدخل
الأجنبي والامتيازات المختلفة التي كان يتمتع بها الأجانب في

البلاد ، كما نقدت إسماعيل نفسه ، مما ترتب عليه مصادرة المجلة ولما
يمضى على ظهورها وقت طويل ، وإن استأنف صنوع تحريرها
بعد استقراره في فرنسا ، وأخذت تهرب أعدادها إلى مصر
حيث لقيت إقبالا كبيرا . ومن وراء هذه الصحافة الناشئة
كان نشاط جمال الدين في الهيئات الماسونية الأجنبية التي كانت
تضم فئات مصرية مختلفة : من أدباء مصريين وسوريين وضباط
وعلماء وباشوات وأمراء إلى بعض النابهين من طبقة الأزهر
وخريجيه ، وبعض أعضاء مجلس شورى النواب الذي أنشأه
إسماعيل في عام ١٨٦٦ ؛ ليشركه الأعيان في سياسته المالية ؛
وليظهر أمام أوروبا بمظهر الحاكم العصري فيسهل عليه عقد
القروض . وقد بقى هذا المجلس حتى مجيء جمال الدين كما مهملا
في السياسة المصرية . وعن طريق تلك الهيئات التقت هذه
الصفوة المصرية التي جمعت خلاصة الطبقة المثقفة ورجال الحكم
المتصلين بالحياة السياسية وأسرار الحكومة ، فنشأت بينهم جميعاً
رابطة من التضامن هي التي قام عليها الحزب الوطني الذي ربطه
جمال الدين بالقاعدة الشعبية عن طريق الصحافة الناشئة التي كان
هو يغذيها بآرائه وتوجيهاته ، فتصدت رأساً للتدخل الأجنبي

والحكم المطلق ، وبشرت بمبادئ الوطنية والحرية والدستور .
وامتد جمال الدين رويداً من مجال الأدب والفكر إلى مجال
السياسة بمعناها الشعبي والقومى : إذ السياسة ليست حكراً على
فئة من الناس دون الفئات الأخرى ، وكل ما يمس الشعب فى
صميمه إنما هو سياسة للجميع أن يبدوا آراءهم فيها . أخذ
جمال الدين يقرب إليه الناس ويصور لهم سوء الحال التى هم عليها
ويحثهم على مقاومة الظلم والاستعباد ويقول لهم « ... انظروا
أهرام مصر وهياكل منفيس وآثار طيبة ومشاهد سيوة
وحصون دمياط فهى شاهدة بمنعة آبائكم وعزة أجدادكم .
هبوا من غفلتكم . اصحوا من سكرتكم . عيشوا كباقي الأمم
أحراراً سعداء » .

ولم يكن عجباً ، ومصر بها هذا الزعيم الكبير ، أن تنتقل
البلاد من حال إلى حال . ثار الضباط الوطنيون على الوزارة
الأوروبية التى أقامها الاستعمار وعلى رأسها نوبار الأرمنى ، الذى
الذى لم يتقن اللغة العربية ، والذى طامح نادى بأنه لن يخلص
مصر من الحكم المطلق سوى الاحتلال الأجنبى — يقصد
الاحتلال الانجليزى — . وفيها أيضاً وزيران أحدهما انجليزى
والآخر فرنسى ، وغير ذلك من العناصر الأوروبية التى تولت

بعض المناصب الكبرى وأغدقت عليها الرواتب الكبيرة. ونجحت ثورة الضباط (فبراير ١٨٧٩) واستقال نوبار . ولكن انجلترا وفرنسا سندتا الوزيرين وانزعتا لهما سلطات واسعة .

وسرت روح جديدة في مجلس شورى النواب الذى ألهته الصحافة الوطنية وأحياته ، حين شنت الحملة فى سبيل إقرار المسئولية الوزارية أمامه . فقد نادى جريدة « الوطن » فى عددها الصادر فى ٢٨ ديسمبر ١٨٧٨ بضرورة إيجاد برلمان يفرض النظام والعدالة، وما وحدها اللذان بإمكانهما تطوير كل نظم الحكومة . وذكرت أن الحكم المطلق مما يجعل الحاكم عدوا للشعب ، ويفتح بابا للتدخل الأجنبى . وحين افتتح المجلس دورته فى أوائل عام ١٨٧٩ ذكرت الصحافة الوطنية أعضاءه وأحيهم فى الدفاع عن حقوق الأمة، والتخفيف من بؤس الفلاحين، ونشرت مقترحات أعضائه، ووجهت الحملات ضد أخطاء الخديو وامتيازات الأجانب، وخاصة الوزيرين اللذين كانا يتقاضيان مرتبا يزيد كثيرا على مرتب الوزراء المصريين ، ونادت بضرورة اتحاد الحكومة والشعب فى برلمان يمثل الأمة تمثيلا صحيحا، وبمصر للمصريين وحدهم .

وآثر إسماعيل أن يستغل هذه الحركة الوطنية لاسترداد سلطته التى ضيق عليها الأوروبيون الخناق . فاتصل بالزعماء ،

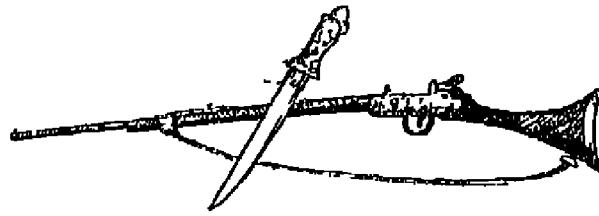
وأفهمهم أنه لا يعترض على مقاومتهم للتدخل الأجنبي ، وبث في الحركة الوطنية رجله المخلص محمد شريف الذي أخذ يشرف على التوقيع على عريضة أمضاها أصحاب الرأي في البلاد على اختلاف ألوانهم : من زعماء دينيين وباشوات وضباط وعلماء وأعيان وغير ذلك . وكانت العريضة احتجاجا على التدخل وتأكيذا لوفاء مصر لالتزاماتها المالية . وطالبت العريضة بنظام برلماني حقيقي يقيم المسؤولية الوزارية . واستغل إسماعيل تقديم هذه العريضة فأقال الوزيرين الأوروبيين وأمر بتشكيل وزارة « وطنية » .

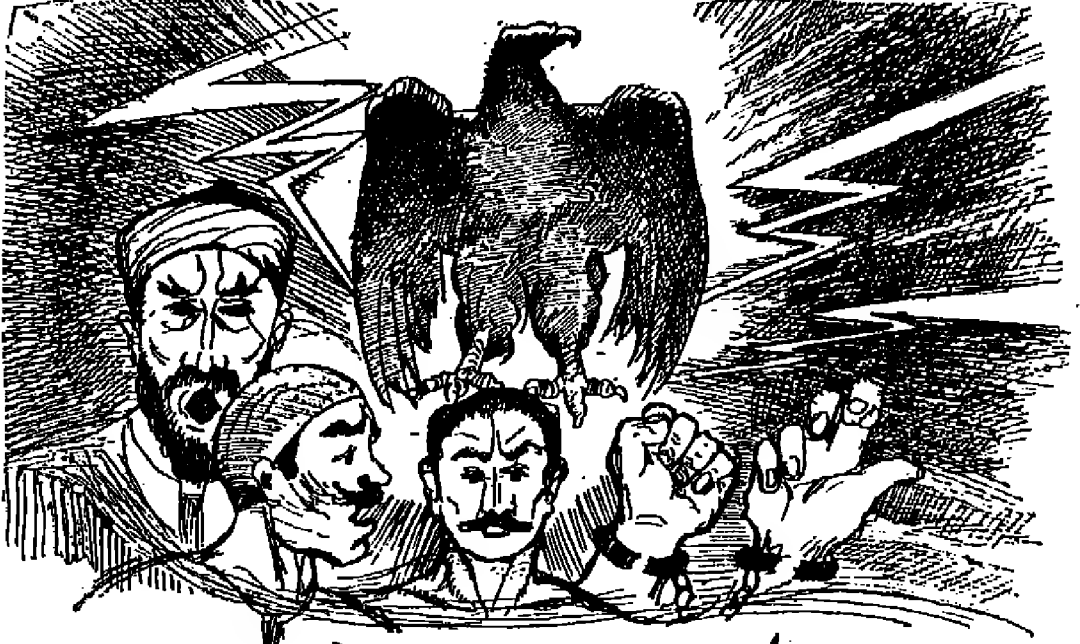
وردت إنجلترا وفرنسا على ما اعتبرتاها تمهيدا من جانب إسماعيل بطلب خلع من السلطان استغلالا لسلطته المعنوية حتى لا يفكر إسماعيل في المقاومة وتتعقد الأمور . وبالفعل حين اشتدت الأزمة كان إسماعيل قد زاد في عدد الجيش وأخذ قسما من الضباط على سندهم له ، وإن يكن معروفا حينئذ أنهم إنما يقصدون إلى مساعدته ضد إنجلترا وفرنسا ، وليس في وجه السلطان . هذا إلى أن الشعور العام في البلاد كان ضد إسماعيل الذي اعتبره المواطنون السبب الأول في التدخل الأجنبي والمصائب التي حلت بالبلاد . وقد أقنع جمال الدين أهل الرأي

بسخافة فكرة الدفاع عن إسماعيل ، إذ أن خوض غمار الحرب دفاعاً عنه لن يلتقى تأييداً من جميع الطوائف بما فيها الجيش . ولهذا توجه إلى قنصل فرنسا العام وأخبره بأنه يوجد في مصر حزب وطني إصلاحى ، وأن باستطاعة الأمير توفيق أن يحقق الإصلاحات التى تحتاج إليها البلاد . وحين خلع السلطان إسماعيل (٢٦ يونية ١٨٧٩) سرى فى البلاد شعور بالارتياح ، فإن الوطنيين قد سندوه فى مقاومة التدخل الأجنبى ليس حبا فيه ، ولكن لمصلحة البلاد . ولم تعطف عليه الصحافة ، بل إن بعض الصحف شنت الحملة على أمراء أسرة محمد على والحكام الذين ولاهم إسماعيل .

ورغم أن إنجلترا وفرنسا كانت لهما اليد الطولى فى خلع إسماعيل ، وأن السلطان عبد الحميد لم يقيم إلا بدور ثانوى ، فإنه حاول أن يستغل الفرصة للتدخل فى شئون مصر الداخلية وإلغاء الامتيازات السياسية التى انتزعتها البلاد من تركيا منذ عصر محمد على ، وأن يجسم ما قد قام به لى يظهر للعالم الإسلامى أنه لا يزال لديه من السلطة والنفوذ ما يكفى لخلق حكام ولاياته ، مؤملاً أن يساعده ذلك فى الدعاية لفكرة الجامعة الإسلامية . ولكن الحقائق لم تكن خافية : فالدولتان الغربيتان هما اللتان

خلعتا إسماعيل وولنا ابنه توفيق ، وذلك رغم ما حاوله الباب
العالى من تولية الأمير حليم أصغر أبناء محمد على وكان مقبلاً
بالآستانة) . وما دامت الدولتان هما اللتان ولتا الوالى الجديد ،
فإنهما كانتا ملزمتين بسنده طالما أنه يحقق لهما أهدافهما
الاستغلاية ويقضى على المقاومة الشعبية . وبذلك تمهد السبيل
لنضال ذى ثلاث شعب بين السلطة الخديوية المتهاوية والتدخل
الأجنبي الذى يسندها وبين الحركة الوطنية المصرية ، فكانت
ثورة ١٨٨١ - ١٨٨٢ التى حاول السلطان عبد الحميد استغلالها
فى مصر لتأكيد سلطته .





الثورة

« لقد خلقنا الله أحرارا ، ولم يخلقنا ترانا وعقارا ، فوالله
الذي لا إله إلا هو إتنا لن نورث ولن نستعبد بعد اليوم »
(عرابي لتوفيق في ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١)

توفيق أن خير وسيلة للمحافظة على عرشه هي
الخنوع لأمجلترا وفرنسا ، اللتين انتهزتا الفرصة
لكي تحددا نظام الحكم الذي تريدهانه ، فأشارتا على توفيق
بالقضاء على الحياة البرلمانية ، وعودة نظام الإدارة الأوروبية

ادرك

وتصديه لمواجهة المسئولية وحده دون تدخل من وزرائه —
كما أشير عليه بطرد جمال الدين الأفغانى والحد من نشاط
مريديه . فكانت هذه الفترة من أوائل عهد توفيق التى اتسمت
بالحكم المطلق للسافر الذى من ورائه نفوذ الدولتين العريض
(وكاتنا حينئذ أقوى دولتين استعماريّتين فى العالم) .
وأجريت التسويات المالية التى فرضتها الدولتان دون مراعاة
لمصالح البلاد : فأعيدت الرقابة الإنجليزىة — الفرنسىة على الخزنة
المصريّة وخول الرقيبان سلطات شاسعة وأصبح لهما حق حضور
جلسات مجلس الوزراء المصرى ، وصفت الديون الأوروپىة
وأصبحت مصر تدفع حوالى نصف ميزانيتها على شكل أقساط
وفوائد ، على حين لم تحظ الديون الداخلىة التى دفعها الملاك
المصريون بنفس العناية التى حظيت بها الديون الأوروپىة .
وجرت هذه التسويات بالتعاون مع الحديدو الذى فشل فى تجربة
الحكم الشخصى ، فعهد بالوزارة إلى رياض بناء على نصيحة
الدولتين ، خصوصاً وأن رياضاً — الذى كرهه مجلس شورى
النواب فى أواخر حكم إسماعيل لمحاولته فض دورته قبل أن
تنتهى — كان يرى التمشى مع النفوذ الأجنبى ، أملاً فى تخليص
مصر من السيطرة الأجنبىة .

وكانت النتيجة أن اتجه السخط العام على التدخل الأجنبي إلى رياض نفسه ، فدفعه غروره واستبداده إلى محاولة حكم البلاد عن طريق الضغط — وسبب ذلك أنه لم يفهم العوامل السكّانة وراء النقد والمعارضة . وكانت جريدتا « مصر » و « التجارة » من أقوى صحف المعارضة ، فتجلت فيهما روح جمال الدين ، وأخذتا تنشران المقالات الحماسية وتنتقدان سياسة الحكومة وتنددان بتفريطها في حقوق البلاد ، فصودرتا كما صودرت جريدة « مصر الفتاة » وضيق الخناق على الصحف الباقية في مصر وكذلك على الصحف التي كان يصدرها يعقوب صنوع في الخارج ، ونفى رجال المعارضة إلى أقصى السودان حتى بلغ عددهم قرابة الألف ، وروّق كل من اشتبه في عضويته بالحزب الوطني .

والضغط — كما يقولون — يولد الانفجار . إذ تمسّدى رياض في خطئه وخضوعه للسيطرة الأجنبية وعدم فهمه لحقيقة أسباب المعارضة ، مما عجل بنشوب الثورة بعد أن واصل الحزب الوطني — بعد حملة الكبت التي قام بها رياض — نشاطه بطريقة سرية . وفي أواخر عام ١٨٧٩ أعلن الحزب عن وجوده حين أصدر في أوائل نوفمبر عشرين ألف نسخة من بيان احتوى على

برنامج محدد لإنقاذ مصر من ويلاتها . وقد عزا البيان ما يقاسيه المصريون للأسباب الآتية : —

١ — الحكم المطلق ، وخلق البلاد من برلمان منتخب يتمتع بسلطات كاملة .

٢ — عدم سيادة القانون وعدم تساوى الناس أمامه .

٣ — افتقار البلاد إلى التعليم العام .

٤ — عدم إحساس طوائف الموظفين بالمسئولية عن الصالح العام .

٥ — الربا .

٦ — عدم انتظام توزيع مياه الري .

٧ — عدم كفاية مرتبات الموظفين المصريين .

وانضمت الفئات الساخطة بعضها إلى بعض ، فانضم الباشوات الذين مست الإدارة الأوروبية وضعهم في البلاد ، إلى الأعيان الذين ضايقهم إلغاء القروض التي قدموها للحكومة ، وفرض مزيد من الضرائب على أراضيهم . كما انضم إليهم الموظفون المصريون الذين حقدوا على الإدارة الأوروبية تفضيلها الأجانب عليهم وإغداق الرواتب الضخمة عليهم . وما لبثت هذه الطوائف أن وجدت القوة المادية اللازمة لسند مطالبها حين ظهر الجيش

على مسرح السياسة فكان بمثابة رأس الحرية للثورة التي مالبثت أن اندلعت . أليس جنود الجيش من الفلاحين الذين كانوا يعملون قبل تجنيدهم في الحقول ويامسون ضغط الإدارة، ويتحملون مساوىء الربا وقسوة محصلى الضرائب ؟ وضباط هذا الجيش : ألم يكونوا على اتصال بالحركة الوطنية منذ أواخر حكم إسماعيل ؟ أو لم يكن زعمائهم من أبناء الفلاحين الذين رقوا من تحت السلاح في عهد سعيد ؟ أو لم يحسوا بالمهانة لهزيمة الجيش في الحبشة بسبب عدم كفاية قوادهم من الأتراك والشراكسة والأوروبيين ممن لا يعطفون على أبناء الفلاحين أو يعاملونهم بشيء من الاحترام ؟ .

أحس قواد الجيش من الوطنيين بالسخط العام وتجاوبوا معه . كما كانت له شكاواهم الخاصة من المجاباة في الجيش لمصلحة الأتراك والشراكسة المقربين إلى القصر ، فعقدوا العزم على المطالبة بالعدالة في مجالهم خاصة وأن الجيش قد شعر بالثقة في نفسه بعد أن نجح في أواخر حكم إسماعيل في إسقاط وزارة نوبار . وفي أوائل عام ١٨٨١ تقدم أحمد عرابي وعبد العال حلمي وعلى فهمي (وقد ممي كل منهم نفسه بالمصري) بشكوى الجيش إلى رياض . وبدلاً من فحص هذه الشكوى تقرر تقديمهم

إلى مجلس عسكرى . ولكنهم كانوا قد احتاطوا لهذا الاحتمال ،
وحين طال بهم المكث فى ثكنات قصر النيل حيث عقد المجلس
العسكرى برئاسة عثمان رفقى وزير الحرية الشرکسى ، سارت
كتائب الجيش وأطلقت سراهم بعد أن قضت على المؤامرة
الخدیویة المعتمدة فى صفوف الجيش على حفنة القادة الأجانب
والأتراك والشراکسة ، ثم واصلت طريقها إلى عابدين حيث
طالبت بإقالة عثمان رفقى . وتم للجيش ما أراد ، وتولى وزارة
الحرية محمود سامى البارودى عضو الحزب الوطنى وصديق
الضباط (الفلاحين) وأكبر شعراء القرن التاسع عشر فى
العالم العربى .

وقد أبرزت هذه الحادثة للضباط الفلاحين زمامة من صلبهم
تمثلت فى أحمد عرابى الذى كانت قوته كامنة فى إخلاصه وجراته
وبلاغته الخطائية وتدينه ، وتعبيره عن آمال الأمة وآلامها وفى
عدالة القضية التى تصدى للدفاع عنها . وعلى الرغم من أنه
وزملاءه لم يكونوا من الثقافة واتساع الأفق أو من التجربة
بحيث يحسنون معالجة أمور السياسة العليا ، فإنهم وجندهم كانوا
الوحيدین من رجال الفئات الحكومية الذين كانت غالبيتهم من
صميم الشعب ، بحيث يشعرون بشعوره ويعبرون عن آلامه وآلامه .

ضمن عرابي زعامته للجيش وما لبث ان مديده للفئات الأخرى التي سيطر عليها السخط وأخذ يجمع التوقيعات لعريضة شاملة تهدف إلى زيادة عدد الجيش وإعادة الحياة النيابية وإسقاط وزارة رياض . ووجدت العريضة صدى واسعاً لدى طوائف المصريين جميعاً بغض النظر عن الفوارق الحقيقية التي كانت تفصل هذه الطوائف بعضها عن بعض : إذ الخطر الأجنبي قد تهدد البلاد جميعاً فأشعر الجميع بضرورة وحدة الصف ، خاصة وقد نزلت القوات الفرنسية في إبريل ١٨٨١ إلى تونس لاحتلالها فأعطى ذلك للمصريين مثلاً صارخاً للأساليب أوربا الاستعمارية وأقنعهم بضرورة تقوية الجيش حتى يستطيع الدفاع عن البلاد بحيث لا تتكرر فيها مأساة تونس . وازداد القلق وانتشرت الإشاعات بأن احتلال فرنسا لتونس إنما تم طبقاً لاتفاق سابق مع إنجلترا يقتضى أن تعوض الأخيرة نفسها في مصر ، واتهم رياض بأنه عميل لإنجلترا في هذه المؤامرة ، واشتد هجوم الصحافة على الفرنسيين والإنجليز ، بل على الأوروبيين بوجه عام ، واستيقظت المشاعر الوطنية بشكل لم يسبق له مثيل . وبعد أن أبدت تركيا عجزها إزاء احتلال الفرنسيين لتونس (التابعة للدولة العثمانية) ، لم يتوقع المصريون الكثير من مساعدة

السلطان ، وعقدوا العزم على الدفاع عن أنفسهم بأنفسهم ،
فغطت المشاعر القومية في بداية الثورة على الشعور بالجامعة
الإسلامية - وإن يكن . صير تونس قد دفع السلطات العثمانية إلى
تعديل أساليبها : فقد اقتنع الوزراء الأتراك بأن قد قدم لتونس
إنما يرجع إلى خطتهم السلبية إزاء التدخل الأجنبي في شئونها ،
ومن ثم قرروا اتباع سياسة أكثر نشاطاً في مصر حتى لا تضيق
هي الأخرى وتقع في يد الاستثمار الأوروبي .

واشتد كره المصريين للأجانب المقيمين في البلاد . وكتب
القنصل الفرنسي في مصر ينبه حكومته إلى خطورة الأحوال
في البلاد . وسجل النجاح الذي صادفته العريضة الوطنية .
ويرجع كره المصريين للأجانب إلى تدخلهم في شئون
البلاد وإلى أسلوب حياة الجاليات الأوروبية الوفيرة في ذلك
الوقت . فهذه الجاليات كانت تعيش في محيط أوروبي ،
وتستكشف الاتصال بالوطنيين وتجهل وجهات نظرهم وتحكم
على كل شيء طبقاً لوجهات النظر الأوروبية وسياسات حكوماتها ،
محتقرة كل ما لا يتفق مع وجهات النظر الأوروبية .

وأراد الحديو أن يوقف تيار السخط العام بالحد من نشاط
الضباط فعزل البارودي وولى مكانه صهره داود يكن ، واتخذ

إجراءات صارمة لإعادة النظام فى الجيش ، ففرضت الرقابة الشديدة على زعمائه . وسرت الشائعات بأن الحديو قد استصدر فتوى من شيخ الإسلام تدين زعماء الضباط بالخيانة العظمى . حينئذ اتصل عرابى بالعلماء والأعيان وزعماء البدو الذين خولوه التكلم باسم الأمة ، ووعدوا بأن يؤازروه فى المظاهرة الوطنية التى أزمع القيام بها فى ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ لتقديم العريضة الوطنية إلى الحديو .

وكانت مظاهرة شعبية رائعة كللت بالنجاح . فقد امتلأت القاهرة بوفود الأقاليم التى جاءت لنصرة عرابى . وفشل الحديو فى ضم أية فرقة من فرق الجيش إلى صفه - بل إن حرسه الخاص قد انضم إلى أبناء جلدته . فلم يسع توفيق سوى قبول المطالب الوطنية : فأقبل رياض وأجل المطالبان الآخران بحجة محتهما ، وعهدت الوزارة إلى محمد شريف الذى قدم طلباً إلى توفيق بدعوة مجلس شورى النواب وإجراء انتخابات عامة . ووافق الحديو وأجريت الانتخابات فأسفرت عن مجلس جميع أعضائه من الأعيان اجتمع فى ديسمبر سنة ١٨٨١ . وهكذا انتصرت الثورة . وتحققت إرادة الحزب الوطنى المصرى ، وأطلقت الحريات وأعيد المنفيون إلى البلاد وعمت

الفرحة مصر من أقصاها إلى أقصاها ، وبرز نجم الحزب الوطنى الذى باشر نشاطه العلنى بعد أن ظل تحت حكم رياض يعمل فى الحفاء . وعبر مراسل « البول مول جازيت »^(١) الإنجليزية عن حقيقة الموقف بقوله : « إن من الخطأ الفاحش قبول ما يؤكد البعض من أن الحركة قاصرة على مدينتى القاهرة والإسكندرية . ففى العامين الماضيين سنحت لى فرصة زيارة كثير من القرى . ويمكننى القول بكل تأكيد : إن كل الرجال البارزين والمشايخ والمديرين (إذا لم يكونوا من الأتراك) والمفتشين المختلفين و - باختصار - كل الشخصيات التى تؤثر على الجماهير هم من أشد الناس حماسة وتعضيداً للحزب الوطنى . ومن المؤكد أن الفلاح لا يعرف كثيراً عن المسائل السياسية ، ولكن خبرته بتدخل الأتراك والأوروبيين فى شئونه تجعله ينظر إلى هذا التدخل بعين الشك . فالأتراك يلجئون إلى الكرواج ليلتزموا منه كل ما يمكن من القروش التى يمتلكها . كذلك يلجأ المرابون اليونانيون والإيطاليون إلى المحاكم المختلطة ليفعلوا نفس الشئ - فهل من العجيب إذن أن يعضد شيخ قريته - وعن طريقه - الحزب الوطنى ؟ » .

The Pall Mall Gazette (١)

تدخل السلطان

أعرابي وشريف لممثلي الدول بعد مظاهرة ٩ سبتمبر أن مصالح كل رعايا الدول الصديقة ستحظى بالرعاية . ورغم ذلك ، ورغم هدوء الموقف في مصر بعد تولية وزارة شريف ، فإن أحداث مصر قد استثارت اهتمام الدول الكبرى ورعاياها في مصر لاسيا وأن السلطان عبد الحميد - الذي أرسل إليه توفيق غداة المظاهرة طالبا تدخله العسكري - رأى أن ينتهز الفرصة للاصطياد في الماء العكر .

وكان لا بد لأحداث مصر أن تحدث دويا في العاصمة التركية، لاسيا وأن السلطان ذاته قد تنكر للدستور الذي أعلنه في عام ١٨٧٦ كما تنكر لمذحت باشا أبي الحركة الدستورية في تركيا ، وأوغل في سياسة استبدادية كان مقيضا لها أن تساعد على الإيعان في إضعاف تركيا ومناصبه العرب والدستوريين من الأتراك العداء للحكومة ولجؤهم إلى النشاط السري . ولما كان السلطان يخشى أن تتأثر العاصمة التركية بأحداث مصر ، فقد حرم على الصحافة التركية التعليق على اخبار مصر .

ومنذ مظاهرة ٩ سبتمبر حتى الاحتلال البريطاني اتبع

عبد الحميد بصدد مصر سياسة مليئة بالمتناقضات ، كان مقبضا لها
أن تعجل بالاحتلال البريطاني . فلم تكن للسلطان خطة واضحة
إزاء مصر: فهو آنا يحاول أن يؤكد سلطته الزمنية بصفته سلطانا ،
وآنا آخر يحاول أن يؤكد سلطته الروحية بصفته خليفة للمسلمين .
أما الخطة الأولى فكانت تعنى التدخل فى شئون مصر الداخلية
 وإرسال قوات عسكرية إليها إذا ما سمحت الظروف تأكيداً
 لسلطة الخديو ، بصفته مندوبه فى البلاد طبقاً للقرمانات . وأما الخطة
 الثانية فكانت تقتضى سند الحركة الوطنية المصرية فى وجه
 التدخل الأجنبى والترويج لفكرة الجامعة الإسلامية - ومعنى
 ذلك مناصبة الدول الأوروبية - التى كانت تسند توفيق - العداء .
 وعلى حين أعلن عبد الحميد عدم رضاه عن الثورة المصرية من
 حيث المبدأ ، وذلك بسبب مقتته للنزعة الدستورية ؛ ولأنه كان من
 المستحيل بالنسبة إليه أن يسمح لإحدى ولاياته بالحياة الدستورية
 ويحرمه على الولايات الأخرى ، ورغم أنه ما فتئ يعلن استعداده
 لسند الخديو الذى يدين له بتعيينه ، إلا أنه لم يتردد منذ البداية
 فى إقامة صلات سرية مع عرابى وزملائه عن طريق إيفاد
 المبعوثين السريين إلى مصر . فكيف يمكن التوفيق بين هذه

السياسات المتناقضة ؟ ألا يعطى تشجيع الحركة الوطنية المصرية الفرصة لأوروبا لكي تتدخل في شئون مصر ؟ ثم ألا يؤدي التسكر للثورة إلى عرقلة حركة الجامعة الإسلامية ؟ إذن ليس من الغريب أن يفقد السلطان ثقة كل من الطرفين المتنازعين في مصر، وإن يكن كل منهما يود استغلال سلطته المعنوية لتأييد موقفه. ولم يكن عرابي يشعر بأى ميل نحو الأتراك الذين أساءوا حكم مصر لعدة قرون، ولم يكن هو وزملاؤه ليسمحوا بتدخل ساسة الأستانة في شئون مصر الداخلية. ولكنه كان يفرق بين الحكومة العثمانية وبين السلطة الدينية التي كان يتمتع بها السلطان، الذى كان على عرابي أن يطيعه باعتباره خليفة للمسلمين وأميرا للمؤمنين طالما يراعى العدالة . هذا إلى أن علماء مصر وقادة جيشها كانوا يقرون سلطة السلطان بصفته خليفة ، وذلك حتى يمكنهم أن يستغلوا تعضيده لهم فى تحدى أوروبا - فهم يقرون سياسته وخلافته طالما لا يهدف إلى فرض سلطته المباشرة على البلاد .

وكانت إنجلترا من ناحيتها تميل إلى سند سلطة الخديو عن طريق السلطان صاحب السلطة الشرعية فى البلاد . فقنصلها العام (سير إدوارد مالت) قد هيمن على توفيق ، ودعم نفوذ

دولته في البلاد بتأثيره الشخصي على الحديو والمحيطين به . لهذا لم تكن انجلترا منذ البداية تعطف على الحركة الوطنية المصرية التي من شأنها أن تضعف سلطة الحديو وبالتالي النفوذ البريطاني . وزار «مالت» الأستانة بعد مظاهرة ٩ سبتمبر وأوعز هو والسفير الإنجليزي في الأستانة (اللورد دفرن) إلى السلطان بالتدخل في مصر ، وذلك عن طريق إرسال بعثة توطد سلطة الحديو وتخيف قواد الجيش والحركة الوطنية . كما أن عرابي ذاته والوطنيين لم يكونوا يمانعون في إيفاد البعثة السلطانية إلى البلاد ، حتى يمكن للسلطان عن طريقها أن يتبين حقيقة الموقف في البلاد ، وإن لم يكونوا يتوقعون حين اتصلوا بالسلطان بهذا الصدد أن يأخذ المسألة مأخذا جديا . وعلى أي حال فقد تشجع السلطان ، وأرسل إلى مصر بعثة خاصة وصلت الإسكندرية في ٦ أكتوبر ١٨٨١ ، وكان يرأسها الجنرال على نظامي باشا ، وتتكون من على فؤاد بك السكرتير الخاص للسلطان وثلاثة آخرين من موظفي الباب العالي . ولم يرحب الشعب المصري ببعثة نظامي التي اعتبرها تمهيدا للتدخل التركي المباشر أو المسلح في شئون البلاد . ولكن رحبت بها بعض الصحف التي كان المشرفون عليها مؤمنين بفكرة الجامعة الإسلامية . ومن هذه الصحف جريدة

« الحجاز » التي كان يرأس تحريرها إبراهيم سراج المدني، الذي اشتهر بنشاطه ضد الاحتلال الفرنسي في الجزائر، حيث كتب مقالات عنيفة ضد الفرنسيين مما أدى إلى مراقبته ثم طرده، فاستقراره بمصر حيث أنشأ فيها جريدته . ومنها أيضا جريدة « البرهان » التي كان يرأسها حمزة فتح الله الذي كان محررا بالجريدة التونسية « الرائد التونسي » قبل استقراره بمصر بعد الاحتلال الفرنسي لتونس . وكان حمزة فتح الله يحظى باحترام كبير من الأوساط الإسلامية ؛ بسبب تفقهه في مسائل الدين . وهناك أيضا جريدة « المفيد » التي كان يبدو أنها تتلقى وحيا من الأستانة وتعمل على الترويج لفكرة الجامعة الإسلامية ، وجريدة « الطائف » التي كان عبد الله نديم يرأس تحريرها ويمزج فيها بين الاتجاهين الوطني والإسلامي .

ومع أن هذه الصحف كانت تحمل على الأوروبيين دون هوادة ، فإنها رحبت ببعثة نظامي ، وقالت إنها إنما جاءت لحماية مصر من أعدائها . ولهذا أنعم نظامي بالنياشين على رئيس تحرير جريدة « البرهان » .

وحاولت البعثة أن تؤثر في أعيان البلاد ونوابها لكي يطالبوا بتأكيد سلطة السطان في مصر ، كما حاولت أن تدفع

توفيق إلى حل مجلس شورى النواب. ولكنها فشلت في الاتجاهين بل لقد طالب أعيان البلاد ونوابها بمخلع توفيق . ومع ذلك فقد رفع الجنرال نظامى تقريراً إلى السلطان أكد فيه أن العرب من أهل مصر (تميزاً لهم عن الأتراك والشراكسة) متعلقون بشخص الخليفة ، وأن البعثة قد تلقت رسائل ووفوداً من شتى بقاع مصر بل من أماكن أخرى خارج مصر : كفاس والحبيشة . وكان نظامى مكلفاً بأن يقوم بتحريات قصدها التأكد من فكرة الإمبراطورية العربية المستقلة التى كانت تقلق بال ساسة الأستانة. ولكن تقارير نظامى لم تشر إلى شىء بهذا الخصوص ، وإن يكن توفيق ذاته قد تلقى رسالة طويلة تستفسر عن أمر هذه الفكرة . وكلف أحد أعضاء البعثة المسمى أحمد راتب الذى بارح السويس فى ٢١ أكتوبر فى طريقه إلى جدة، بعد أن اتصل بعرايى ، كلف بأن يتحرى عما إذا كان ثمة تحالف من أى نوع بين عرب آسيا وإفريقيا ، وعما إذا كان ثمة اتصال بين الطرفين فى موسم الحج . وكتب مراسل جريدة « البول مول جازيت » الإنجليزية أن البعثة لم تكتسب إلى صفها سوى حزب البلاط (أو الحزب التركى الذى كان يعرف فى مصر باسم الشراكسة) وحوالى خمسة وعشرين شيخاً من مشايخ الأزهر ممن كانوا هم

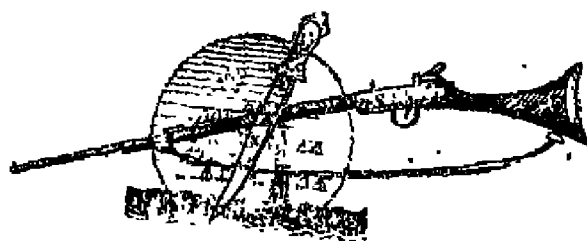
وشيخ الإسلام محمد العباسي حتى ذلك الوقت سنداً للسلطة الحاكمة مما يفسر تلقيهم الهدايا والنياشين من السلطان . كما كتب المراسل أن مشروعات البعثة قد قوبلت بالاحتقار من الغالبية العظمى من العلماء الذين سخطوا على العباسي الذي خلع من منصبه في ديسمبر وحل محله الشيخ محمد الإنباي الذي كان يمثل المشايخ المتحررين ويعبر عن وجهات النظر القومية ولا يميل إلى وجهات نظر الجامعة الإسلامية .

وقد استشاطت فرنسا غضباً لإرسال بعثة نظامي إلى مصر - فهي كانت تخشى أن يؤدي تدخل السلطان في مصر إلى إشعال نار الحماسة الدينية ، وبالتالي إلى نجاح حركة الجامعة الإسلامية واشتداد مقاومة السكان في تونس والجزائر للحكم الفرنسي .

لهذا وقفت فرنسا من البعثة موقف المعارضة وأقنعت إنجلترا بضرورة تقصير أجلها إلى الحد الأدنى ، وأرسلت الدولتان سفينتين حربيين إلى المياه المصرية ، وهاجت الحواطر في البلاد بعد إرسال السفينتين واشتدت الصحافة في النقد والمعارضة مما جعل شريفاً يصادر بعض الصحف ويسن قانوناً لتحديد حرية الصحافة هو القانون الذي بقي سارياً حتى إلغاء دستور ١٩٢٣ ، وإن يكن

إسماعيل صدقي قد أحياء من جديد حين فرض على البلاد حكمه
الديكتاتورى فى أوائل الثلاثينات .

ومهما يكن الأمر فقد ترتب على وصول السفن رحيل البعثة
التركية فى نفس الوقت الذى رحلت فيه السفيتتان . ورغم فشل
البعثة التركية فى تحقيق أية نتيجة محسوسة، فإنها أدت إلى رحيل
عرايى والبارزين من رفاقه إلى خارج القاهرة وابتعادهم عن
المسرح السياسى بعض الوقت .



Go

Collection of the Alexandria Lib.
Shawarid

مبادئ الحزب الوطنى «القديم»

أن تألفت وزارة شريف زار الأعيان رئيس الوزراء وقدموا إليه طلبا بعقد مجلس للنواب يتمتع بنفس الامتيازات التى تتمتع بها المجالس المماثلة فى البلاد الأوروبية المتحضرة ، وقدم شريف هذا الطلب إلى الخديو واقترح إجراء انتخابات عامة ، بشرط أن يقدم مشروع الدستور إلى مجلس شورى النواب بعد انعقاده ، وليس إلى الخديو . وقبل توفيق هذه المقترحات ، وبدأت الانتخابات فى نوفمبر سنة ١٨٨١ . ورغم حرية الانتخابات فلم يسمح بالاشتراك فيها سوى لأقلية صغيرة من السكان تمثل الطبقة الحاكمة ، مما ترتب عليه أن جميع أعضاء مجلس نواب سنة ١٨٨١ - ١٨٨٢ كانوا من الأعيان ، مما يلقى ظلاً على التطورات المقبلة فى الموقف الداخلى - إذ من المستحيل على بلد يمثل حياته النيابية رجال يستقون من طبقات الملاك أن يسير فى تحقيق أهداف قومية تعمل على خير الأمة كلها ، فمن السهل أن يصبح أمثال هؤلاء أداة طيعة فى يد المؤامرات الأجنبية حين يعتقدون أن مصالحهم معرضة للخطر .

واجتمع المجلس في ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨١ - وأرسل
«إدوارد مالت» إلى حكومته يذكر أن البلاد قد تنفست الصعداء
باجتماع المجلس ، وأن الخديو والوزارة قد عمهما التفاهل ، وأكد
أن مصر تمر بمرحلة دستورية حقيقية بعد إذاقتنع بأن مجلس شورى
النواب المصرى يمثل أول محاولة للحكم البرلماني في بلد إسلامي .
ومع ذلك فإن المراقبين الماليين الفرنسي والإنجليزى قد أبدوا
جزعهما من التطور الجديد : إذ كانا يخشيان أن يناقش المجلس
الميزانية ، شأنه في ذلك شأن أى مجلس نيابي آخر . ولهذا كانا
يميلان إلى اصطناع سياسة التهديد والوعيد واستعمال القوة ويبديان
معارضتهما في زيادة ميزانية الجيش حسب ما كان يراه الوطنيون
الذين كانوا ييغون إلى تقوية دفاع البلاد . ولكنهما عملا على تعيين
عرايى وكيلا لوزارة الحرية استغلالا لشعبيته ولكي يؤدي إشرافه
في مسئولية الحكم إلى اعتداله بالإضافة إلى تسهيل مراقبة حركاته .
وأمام الأمر الواقع حاول مالت أن يكتسب الحزب الوطنى إلى صف
انجلترا . وفي ول فرد بلنت وجد أداته في توجيه عرايى والوطنيين .
وبلنت هذا كان مستشرفا بارزا وموظفا سابقا في الأسلك
الدبلوماسى الإنجليزى وعضوا في مجلس العموم ، وكانت زوجته
حفيدة لورد بايرون الشاعر الإنجليزى الكبير الذى كان قد خدم

قضية الحرية بموته أثناء محاربته في صفوف الثوار اليونانيين. وكان
بلنت معجبا بشخصية جد زوجته ، كما كان يحلم بإنعاش الإسلام
وتدعيم قضية الحرية في العالم العربي من الخليج إلى المحيط .
لهذا اتفق مع محمد عبده على القيام بحملة صحفية في جريدة «التايمز»
الإنجليزية لكسب الرأي العام البريطاني إلى جانب الحركة الوطنية
المصرية وإعطائه فكرة عن حقيقة الأوضاع في مصر وأهداف
الحزب الوطني . ووصفت «التايمز» عرايا باعتبارها مصلحا
يسعى جاهدا إلى تخفيف آلام مواطنة وبطلا من أبطال
القومية ووطنيا يسعى إلى تحقيق استقلال بلاده وتخليصه من
الحكم الأجنبي .

وفي أول يناير سنة ١٨٨٢ ، نشرت أهداف الحزب الوطني
في «التايمز» وكان بلنت قد استقاها من عرابي والبارودي
والشيخ محمد عبده الذي كان حينئذ رئيسا لتحرير «الوقائع
المصرية» . وهذه الأهداف هي : —

(أولا) يرى الحزب الوطني المحافظة على الروابط القائمة
بين الحكومة المصرية والباب العالي واتخاذ هذه الروابط ركنا
يستند عليه في عمله . ويعترف الحزب بالسلطان عبد الحميد كمتبوع
وخليفة وإمام المسلمين ، ولا يريد تبديل هذه الصلات والروابط

مادامت الدولة العلية فى الوجود . ثم يعترف باستحقاق الباب العالى لما يأخذه من الخراج بمقتضى القوانين وما يلزمه من المساعدة العسكرية إذا طرأت عليه حرب أجنبية . كما يحافظ الحزب على حقوقه وامتيازاته الوطنية بكل ما فى وسعه ويقاوم من يحاول إخضاع مصر وجعلها ولاية عثمانية ، وله ثقة فى دول أوروبا - ولا سيما إنجلترا - فى متابعة ضمان استقلال مصر الداخلى .

(ثانياً) يخضع الحزب للجناب الحديوى الحالى ، وهو مصمم على تأييد سلطته مادامت أحكامه جارية وفقاً للعدل والقانون حسب ما وعد به المصريين فى شهر سبتمبر ١٨٨١ . وقد قرن رجاله هذا الخضوع بالعزم الأكيد على عدم عودة الاستبداد والأحكام الظالمة التى أورثت المصريين الذل ، والإلحاح على الحضرة الحديوية بتنفيذ ما وعدت به من الحكم النيابى ، وإطلاق عنان الحرية للمصريين ، ويطلبون من سموه التعاون معهم بأمانة فى تحقيق هذه الأغراض ويعدونه بمساعدته فى ذلك قلباً وقالباً ، كما أنهم يحذرونه من الإصغاء إلى الذين يحسنون إليه الاستبداد والإجحاف بحقوق الأمة أو نكث الوعود التى وعد بانجازها .

(ثالثاً) رجال الحزب يعترفون تماماً بفضل إنجلترا وفرنسا اللتين خدمتا مصر خدمة صادقة ويعترفون باستمرار المراقبة

الأوروبية كضرورة اقتضتها الحالة المالية وضمانة لتقدم البلاد .
ويعترفون صراحة بالديون الأجنبية حرصا على شرف الأمة وإن
كانت تلك الأموال لم تقترض لمصلحة مصر بل أنفقت في مصلحة
حاكم ظالم لا يسأل عما يفعل . . . ثم إنهم يرون أن النظام الحالي
لم يكن إلا وقتيا ، وإلا فإنهم يأملون أن يستخلصوا مآليتهم من
أيدي أرباب الديون شيئا فشيئا حتى يأتي يوم تكون فيه مصر
للمصريين .

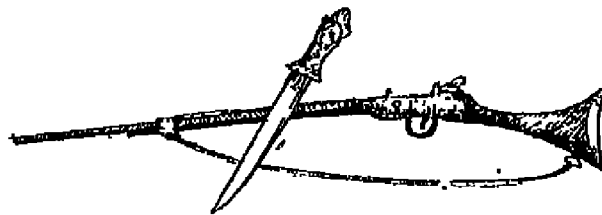
(رابعا) رجال الحزب الوطني يتعدون عن الأخطا الذين
من شأنهم إحداث القلاقل في البلاد إما لمصلحة شخصية أو خدمة
للأجانب الذين يسوؤهم استقلال مصر . وهؤلاء الأخطا كثيرون
في البلاد . والمصريون يعلنون أن الصمت على حقوقهم لا يخولهم
الحرية في بلاد ألف حكامها الاستبداد وكرهوا الحرية ، فإن
إسماعيل باشا لم يمكنه من الظلم والاستبداد إلا سكوت المصريين ،
وقد عرفوا الآن الحرية الحقيقية في هذه السنين الأخيرة فعقدوا
خناصرهم على استكمال تربيتهم القومية ، وهم يرجون أن يكون
ذلك بواسطة مجلس النواب (الذي انعقد الآن) وبواسطة حرية
المطبوعات بطريقة ملائمة وبتعميم التعليم ونمو المعارف بين الأفراد
وهذا كله لا يحدث إلا بثبات هذا الحزب وحزم رجاله .

ويرى الحزب أن أعضاء مجلس النواب ربما أكرهوا على الصمت كما حدث لمجلس الأستانة . وقد يستعان عليهم بالصحافة بجعلها آلة توجه إليهم السهام ، فيتكدر صفو الراحة ويحرم أبناء البلاد من الوقوف على الحقائق ؛ ولهذا فوض الوطنيون أمرهم إلى أمراء الجهادية وطلبوا منهم أن يصمموا على طلبهم لعلمهم أن رجال العسكرية هم القوة الوحيدة في البلاد ، وهم يدافعون عن حريتهم الآخذة في النمو ، وليس في عزمهم بقاء الحال على ما هي عليه ، بل متى حصلت الأمة على حقوقها عدلوا عن السياسة الحالية - فإن أمراء الجهادية عازمون على ترك التدخل في السياسة ... فهم الآن بصفة حراس على الأمة التي لا سلاح لها ، ولهذا يطلبون زيادة الجند إلى ١٨٠٠٠ عسكري .

(خامسا) الحزب الوطنى حزب سياسى لادينى ، فإنه مؤلف من رجال مختلفى العقيدة والمذهب ، وأغلبيتهم مسلمون لأن تسعة أعشار المصريين من المسلمين ، وجميع المسيحيين واليهود وكل من يحرث أرض مصر ويتكلم بلغتها ينضم إليه لأنه لا ينظر إلى اختلاف المعتقدات ويعلم أن الجميع إخوان وأن حقوقهم فى السياسة والشرائع متساوية . وهذا مسلم به عند أخص مشايخ الأزهر الذين يعضدون هذا الحزب ،

ويعتقدون ان الشريعة المحمدية الحققة تنهى عن البغضاء وتعتبر
الناس فى المعاملة سواء . والمصريون لا يكرهون الأوروبيين
المقيمين بمصر من حيث كونهم أجانب أو مسيحيين ، وإذا
حاشروهم على أنهم مثلهم يخضعون لقوانين البلاد ويدفعون
الضرائب كانوا من أحب الناس إليهم .

(سادسا) آمال الحزب معقودة على إصلاح البلاد ماديا
وأديا . ولا يكون ذلك إلا بحفظ الشرائع والقوانين وتوسيع
نطاق نظامه بالمعارف وإطلاق الحرية السياسية التى يعتبرونها
حياة للأمة . وللمصريين اعتقاد فى دول أوروبا التى تمتعت ببركة
الحرية والاستقلال أن تمتعهم بهذه البركة . وهم يعلمون أنه لن
تسال أمة من الأمم حريتها إلا بالجد والكد ، فهم ثابتون
على عزمهم ، آملون فى تقدمهم ، واثقون بجانب الله تعالى
إذا تخلى عنهم من يساعدهم .



الذاكرة المشتركة

الحملة الصحفية التي قام بها «بلنت» في «التايمز» في  أن تكتسب عطف الرأي العام البريطاني إلى صف الحركة الوطنية، وإن يكن بلنت قد اختلف مع مالت بحكم أن كلا منهما كان يود تسخير الآخر لخدمة غرضه : فبينما بلنت يعضد الحركة الوطنية المصرية في حد ذاتها ، نرى مالت يود تسخيرها لخدمة المصالح البريطانية ، على حين أن أوكلاند كولفن المراقب البريطاني في مصر كان متشائماً منذ البداية ويتحين الفرص للقضاء عليها . وكان جلاد ستون رئيس الوزارة البريطانية وزعيم حزب الأحرار يميل إلى الاعتراف بالأمر الواقع ، فكان يرى أن مبدأ «مصر للمصريين» بآه مكانه - لو استمر - أن يوفر الحل الوحيد للمسألة المصرية ، كما كان يرى أنه لا يجب على فرنسا وإنجلترا أن تقاوما الحركة الوطنية المصرية فيما لو كانت هذه الحركة حقيقية - لأن من شأن ذلك أن يثير المتاعب . ولكن هل كان باستطاعته أن يستمر طويلاً في متاعمة الجناح الاستعماري القوي في وزارته : من أمثال جوزيف تشامبرلين^(١) ونورثبروك^(٢)

Northbrooke (٢)

Joseph Chamberlain (١)

وتشارلز ذلك (١) ؟ وهل كانت التقارير التي تصله من مصر تعطف بانتظام على الحركة الوطنية ؟ الحق أن الاتجاهات الاستعمارية كانت قوية في دوائر المال الإنجليزية وفي الصحافة بحيث لم يكن باستطاعة رئيس وزراء إنجلترا أن يقاوم التيار مهما هدد بالاستقالة . وكذلك كانت التقارير التي تصله من القاهرة متناقضة لا تبشر بخير . لهذا لم يكن من المنتظر أن يعطف جلادستون على الحركة الوطنية المصرية نفس عطفه على الشعوب المسيحية التابعة للسلطان التركي في البلقان .

أما رئيس الوزارة الفرنسية ليون جمبتا (٢) فقد كان معاديا للحركة الوطنية المصرية على طول الخط . فهو زعيم حزب الإنعاش القومي في فرنسا والانتقام لبلاده من هزيمتها على يد ألمانيا في عامي ١٨٧٠ - ١٨٧١ - ومن ثم اتجاهه إلى تقوية مراكز فرنسا في الخارج بتشديد قبضتها على شمال إفريقيا ، وتقوية علاقاتها بإنجلترا دون أن يسمح لهذه الأخيرة بتفوق نفوذها في مصر على حساب النفوذ الفرنسي . وكان من رأى جمبتا أن أوربا بوجه عام ،

Charles Dilke (١)

Léon Gambetta. (٢)

وفرنسا بوجه خاص ، لا تصنع الديمقراطية للتصدير ، ولهذا كان ينظر إلى الحركة الوطنية - الدستورية في مصر بعين الاحتقار ويعتبرها « تعصبا إسلاميا » و « أو هاما ثورية » و « عصيانا عسكريا » بحيث كان يفسر مبدأ « مصر للمصريين » بأنه لا يعنى سوى أن مصر لا إنجلترا . لهذا كان يتوق إلى إخماد أنفاس الحركة الوطنية المصرية قبل أن تستفحل وتؤدي إلى ازدياد المقاومة للاستعمار الفرنسي في شمال إفريقيا . ووسيلته إلى ذلك تأكيد نفوذ إنجلترا وفرنسا في مصر وإضعاف سلطة تركيا فيها . هذا إلى أن جبنا كان على اتصال بالماليين اليهود وأخصهم آل روتشلد الذي كانوا يحملون معظم سندات الدين المصرى ويغنون إلى تشديد القبض على مصر ضمانا لأموالهم .

ورأى جبنا انتهاز فرصة قرب اجتماع مجلس شورى النواب لتحقيق سياسته ، ووسيلته إلى ذلك إرسال مذكرة إلى الخديو تعيد إليه ثقته بنفسه وتؤكد نفوذ الدولتين . وكان له من التأثير على وزير الخارجية الإنجليزية ما أخرج إلى حيز الوجود مذكرة ٦ يناير ١٨٨٢ التى وجهتها الدولتان معاً إلى الخديو ووعدتاه فيها بالتعاضد إزاء الصعاب الداخلية والخارجية التى تواجهه ، وإن يكن جرنفل قد تحفظ فى تفسيره للمذكرة بحيث

لم تربط إنجلترا نفسها تماماً بفرنسا في سياسة موحدة إذا ما تهيأت ظروف التدخل .

وكانت المذكرة كالآتي : « إن الحكومتين على تمام الاتفاق في هذا الصدد ، وإن الحوادث الأخيرة وبخاصة الأمر الصادر من الخديو باجتماع مجلس النواب قد هيأت الفرصة لتبادلها الآراء مرة أخرى في هذا الشأن . فالمرجو أن تبلغوا توفيق باشا بأن الحكومتين الفرنسية والإنجليزية تعتبران أن تثبيت سمو الخديو على العرش طبقاً لأحكام الفرمانات التي قبلتها الدولتان رمزياً هو الضمان الوحيد في الحال والاستقبال لاستتباب نظام وتقدم وسعادة مصرور فاهيتها ، وهي الأمور التي تنظر إليها فرنسا وإنجلترا بعين الاهتمام . والحكومتان متفقتان اتفاقاً وطيداً على بذل جهودهما المشتركة لمقاومة كل أسباب المشاكل الداخلية والخارجية التي قد تهدد النظام القائم في مصر ، ولا يخامرهما شك في أن الجهر بعزمهما في هذا الصدد سيكون له أثره في اتقاء الأخطار التي يمكن أن تستهدف لها حكومة الخديو . ومن المحقق أن هذه الأخطار ستلقى من فرنسا وإنجلترا اتحاداً وثيقاً للتغلب عليها ، وتعتقد الحكومتان أن سمو الخديو يجد من هذه التأكيدات الثقة والطمأنينة والقوة التي

هو في حاجة إليها لإدارة شئون الشعب المصرى والبلاد المصرية .
ومن الطبيعى أن تقابل المذكرة في مصر بالسخط العام .
قبلها الخديو شاكرأ بطبيعة الحال . ولكنها أوضحت للوطنيين
أنهم لم يكونوا أحراراً في التمتع بالنظم التى يرون أنها لازمة
للبلاد أو بالحرية التى تعلقوا بها . فحتى تقديم المذكرة لم تكن
الثورة المصرية قد وصلت إلى مرحلة تستعدى على البلاد
التدخل الأجنبى ، بل إن الخديو ذاته لم يكن قد طلب من
الدول أن تتدخل لصالحه أو حتى أن تعمد بالتدخل لتأييده . وكان
تلميح المذكرة إلى « الصعاب الداخلية » يعنى الحركة القومية
والجيش ومجلس شورى النواب . كما أن الإشارة إلى « الصعاب
الخارجية » كانت تعنى السلطان وحركة الجامعة الإسلامية .
وبذلك وجهت الإنذارات إلى شتى الأطراف المعنية .

ولم يفهم أحد في مصر لماذا قدمت المذكرة . وكان معناها
أنها لا تعدو أن تكون مقدمة للتدخل : فهى تعنى عند
الوطنيين فصل مصر عن تركيا توطئة لوقوعها في يد
الأجانب ، وأن الخديو لا يعدو أن يكون العوبة في يدى إنجلترا
وفرنسا ، وأن مصر إن آجلا أو عاجلا ستواجه نفس مصير
تونس . لهذا أصبحت أسماء قواد الجيش على كل لسان ، واعتبر
الضباط المذكرة موجهة ضدهم فقرروا الاحتجاج لدى الخديو

وإرسال مضمونها إلى الباب العالي معبرين عن رفضهم لها .
وعلا المد الثورى فى مصر بشكل خطير غطى على كل نداء
بتوخى الحكمة . فى ١٠ يناير ١٨٨٢ ، حين نوقش مشروع
الميزانية فى مجلس شورى النواب ، أصر أعضاء المجلس على إجراء بعض
التعديلات التى من شأنها أن تعطيم مزيداً من الحرية فى التعبير
عن آرائهم ، وطالبوا بإعطاء المجلس سلطات أوسع فى
الإشراف على الإدارة وإقرار نصف الميزانية الخاص بموارد
الدولة التى لا تتصل بدين مصر العام أو بالجزية التى كان على
مصر أن ترسلها كل عام إلى تركيا . ووقف شريف من مطالب
المجلس موقف العداء ، وطالب القنصلين الإنجليزى والفرنسى
بأن يقدموا احتجاجاً عليها ، ولكن التيار الوطنى كان قد سيطر
على المجلس برمته ، فطولب الخديو فى أوائل فبراير بإسقاط وزارة
شريف وتولت وزارة الثورة برئاسة البارودى وفيها عرابى
وزير للحرية .

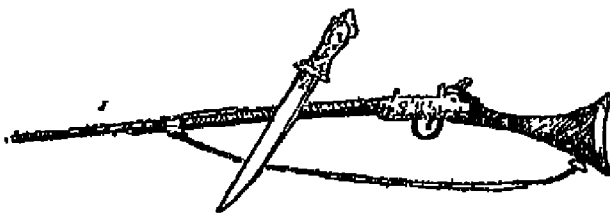
أما السلطان فقد استشاط غضباً لهذا التدخل السافر من
جانب إنجلترا وفرنسا فى شئون مصر إحدى الولايات التابعة له . .
ولم يسعه سوى أن يشكو الدولتين إلى إيطاليا والنمسا وروسيا
وألمانيا ، وهى الدول الأربع التى كانت تشترك مع إنجلترا

وفرنسا في ضمان وضع مصر الدولي . كما أن الصدر الأعظم (رئيس الوزراء التركي) أرسل إلى عرابي يخبره بأن الباب العالي يوافق على مسلكه تماما . وعبثا حاولت إنجلترا وفرنسا تبرير إرسال المذكرة التي أثارت المعارضة في داخل فرنسا بما أدى إلى سقوط جيتا وتولية شارل دي فريسنيه (Charles de Freycinet)^(١) وأرسل السلطان احتجاجا قوى اللهجة إلى السفراء العثمانيين في الدول الست ، وبعد أن لمح الاحتجاج إلى صلة تركيا بمصر ، أكد أنه لا يوجد في أحوال البلاد الداخلية ما يبرر الخطوة التي اتخذتها إنجلترا وفرنسا ، وأنه إذا لم يكن ثمة بد من التدخل ، فمن الأولى أن يقوم به السلطان صاحب السيادة على البلاد ، وأن المذكرة التي تقدمت بها الدولتان تعتبر تعدياً على هذه السيادة .

وسندت الدول الأربع سلطة تركيا في مصر ، ونمت لهجة ساستها عن تفضيلها تدخل السلطان إذا ما كان هذا التدخل ضروريا . وفي ٢ فبراير أرسلت الدول الأربع مذكرة مشتركة

(١) لفريسنيه كتاب عن المسألة المصرية . La Question d' Egypte (١٩٠٤) يعتبر من المصادر الرئيسية في هذا الموضوع .

رداً على احتجاج الباب العالى جاء فيها أنها ترغب فى المحافظة
على الأحوال الراهنة فى مصر طبقاً للاتفاقيات الأوروبية القائمة
والفرمانات السلطانية ، وأنها ترى انه لا يمكن تغيير الحالة
الراهنة بشكل قانونى إلا بالاتفاق بين الدول العظمى والسلطان
صاحب السيادة على مصر . ومن هنا كان لابد من طرح المسألة
المصرية على مؤتمر دولى . وهكذا أدت المذكرة المشتركة إلى
إقحام الدول الأوروبية الكبرى فى شئون مصر . ولم يكن حل
المسألة المصرية ليتم طبقاً لأمانى المصريين المشروعة ، وإنما وفق
ما تمليه المنافسات الدولية والمصالح الأوروبية .





كان تأليف الوزارة الجديدة نصرا للثورة فقد تم ضد
رغبة الحديو الذي لم يستشر في اختيار الوزراء ومن
ثم سقطت هيئته تماما . ولما كان الوطنيون يتجهون منذ البداية
إلى تطبيق مبدأ « مصر للمصريين » ، فإنهم عملوا على التخلص
من الموظفين الأجانب ، ولهذا لم يكثرثوا باحتجاجات المراقبين
المتكررة ضد ما في مشروع الدستور من تقييد لسلطاتهما ،
بحيث لم يعد لهما سوى حضور جلسات مجلس شورى النواب
ومجلس الوزراء حين النظر في الميزانية .

وفي ٧ فبراير صدر دستور الثورة متضمنا جميع التعديلات
التي أدخلها الوطنيون على مشروع شريف ، ودلت المناقشات
التي جرت في مجلس شورى النواب في الفترة القصيرة التي انعقد
فيها (من ٩ فبراير إلى ٢٦ مارس) على ما كان يمكن أن تتمخض عنه

الحياة النيابية فقد قدمت مقترحات بتحسين أحوال الزراعة وإصلاح القضاء وتعميم التعليم الإلزامي والإعانات وإقرار قانون انتخاب جديد أكثر ديمقراطية . ومن الغريب أن تجيء هذه المقترحات من مجلس جميع أعضائه من الأعيان . ولكننا لا يجب أن نغفل أهمية اتصال رجال الحزب الوطني حينئذ بالحياة النيابية - فعظم مفكرى مصر فى ذلك الوقت كانوا من الوطنيين الذين شقوا طريقهم إلى الحياة العامة بكفاحهم الخاص وعلمهم ومواهبهم ، وهم الذين تولوا مهمة التوجيه فى هذه المرحلة الحرجة من تاريخ البلاد التى ازداد فيها الخطر الخارجى .

وتولى عرابى ومحمد عبده وعبدالله نديم وغيرهم - وهم من صميم الشعب - تولوا القيادة الفكرية فى ذلك الوقت . وخاطب عرابى الفلاحين منددا بالظلم الذى رزحوا تحته مئات السنين ، واعداد إياهم بتحسين أحوالهم ، بل إن أحد الضباط خاطب الزراع فى نواحي الزقازيق قائلاً لهم إن الأراضى التى يمتلكها الأثرياء من حقكم أتم . وتنقل الخطباء فى ربوع القطر مبشرين باتجاهات الثورة التى اكتسبت إلى صفها الفلاحين وعامة الشعب فى المدن - فإن عرابيا وغيره من الخطباء ماقتثوا يشرحون لهم مزايا العهد الجديد ، حتى اندفعت جموع الجنود والشرطة والعمال والفلاحين

إلى جانب الثورة . ولكن ليس معنى ذلك ما قاله أعداء الثورة من أن عرايا وأنصاره لم يكتسبوا إلى صفهم سوى أخط الفئات وأكثرها جهلا ، أو أن المثقفين قد انزلوا عن الثورة . حقيقة كان من هؤلاء المثقفين من ارتبطوا بالأسرة الحاكمة ومن انزلوا عن الشعب أو خشوا أن تؤدي الثورة إلى الاحتلال الأجنبي . ولكن العهد الجديد قد نفس عن أمانى الشباب وطموحهم ، حتى أن الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده - بالرغم من أخذه على زعماء الثورة تطرفهم واندفاعهم - لم يتوان لحظة عن تأييدهم حتى شاركهم في النهاية بعض المصير الذى لا قوه .

ولما كان تأليف وزارة الثورة يعتبر تحديا لإنجلترا وفرنسا ، فإنهما أخذتا تفكران جديا فى التدخل . وعلى حين أن إنجلترا كانت لاتزال تفضل تدخل السلطان ، فإن فرنسا كانت لاتزال تعارض هذا التدخل خوفا على مركزها فى شمال إفريقيا ، وتفضل عليه تدخلا إنجليزيا فرنسيا ، وهو ما لم تكن إنجلترا ترغب فيه . إذ إنجلترا تستشف تردد السلطان وتزمع القيام بتدخل منفرد بعد أن تمهد لذلك فى المجال الدولى فازداد النشاط فى الباب العالى الذى رشح لعرش مصر الأمير حليم الذى كان لا يزال فى الأستانة حيث اكتسب إلى جانبه بعض الأنصار من الساسة الأتراك ،

كما كان له أنصار في مصر منهم من هو في الأزهر (الشيخ العدوى) ومن هو في الحزب الوطني (حسن موسى العقاد الذي كان رياض قد نفاه إلى السودان ثم رجع بعد تأليف وزارة شريف) . وكانت الدول الكبرى - باستثناء إنجلترا - لا تمنح في خلع توفيق وتولية حليم محله ، بحيث يمكن تهدئة الموقف الداخلي بخلع توفيق الذي كان موضعاً للكراهة والاحتقار بسبب توأمة مع الأجانب .

وظل الباب العالي يواصل سياسته ذات الحدين : فهو يقيم العلاقات مع كل من الحديو والوطنيين لعله بذلك يوسع المهوة التي كانت تفصل الفريقين ويوفر لنفسه فرصة للتدخل . وأرسل الباب العالي إلى وزارة الثورة يشجع رجالها على تحدى أوروبا ونقض الاتفاقيات المالية التي أجراها إسماعيل - أى أنه كان يود اكتساب الحزب الوطني إلى صفه بإبداء العطف على آماله .

أما الوطنيون ذاتهم فإنهم كانوا يهدفون إلى استغلال صلتهم بالسلطان لكي يقووا مركزهم ، وإن كانوا في الواقع يتوقون إلى اليوم الذي يصلون فيه إلى حيز القوة بحيث يعلنون مصر جمهورية صغيرة مثل سويسرا تضمن الدول حيدتها ، ثم تنضم إلى هذه الجمهورية سوريا ثم الحجاز . ويذكر محمد عبده أن

الوطنيين وجدوا بعض العلماء غير مستعدين تماما لهذه الفكرة ،
وأنتهم كانوا متخلفين عن زمن الثورة . ويلاحظ أيضاً أن
الغالبية العظمى من الشعب كانت أمية بحيث لم يكن من السهل
عليها ان تهضم فكرة الجمهورية، أو تمارسها ممارسة واعية فيما لو
دخلت إلى حيز التنفيذ . فالحكم الجمهورى الحر المستند إلى
مجالس نيابية يستلزم تدريبا ووعيا وتدرجا ، وتنفيذه طفرة
واحدة فى الدول التى لم يدرب شعبها أو يتلق قسطا وافرا
من التعليم مما يسهل تحول الحكم النيابى إلى دكتاتورية برلمانية
أو تسخير الشعب بصورة أو أخرى لخدمة ذوى الأغراض
الخاصة والمهييجين .

وكانت الصعاب تكثف الثورة من كل جانب بحيث عرقلت
تحقيق أهدافها الإصلاحية وحولت جهودها إلى مكافحة الأعداء
الداخليين والخارجيين ؛ فلكى يثبت الثوار الوضع الجديد كان
لزاما عليهم أن يطهروا الجيش من أعداء الثورة وأن يحاولوا
القضاء على المحسوية فى صفوفه لمصلحة الأتراك والشراكسة .
ولهذا أحالوا منهم قرابة ثلاثمائة ضابط إلى الإستيداع ، وتأمر
هؤلاء الأتراك والشراكسة الذين كان يزعمهم عثمان رفقى ،
وكانوا على صلة بإسماعيل فى منفاه فى إيطاليا ، لتدير انقلاب

يهدف إلى مقتل عراقي وقادة الجيش من الوطنيين وزعماء
الحركة الوطنية . ولكن المؤامرة اكتشفت قبل تنفيذها
وحكم على أربعين من المتآمرين - وعلى رأسهم رفقي - بالتجريد
من رتبهم العسكرية والنفي إلى أقاصى السودان . ودبر مالت
وتوفيق الخطط لاستغلال حادثة الشراكسة لخلق أزمة والتمهيد
للتدخل العسكرى ، مستعينين فى تحقيق أهدافهما بمن يمكن
ضمهم إلى صف المؤامرة من الحاقدين على الثورة أو من ضعاف
الإيمان والمترددین والخنونة .



التأمر على الثورة

أصبح توفيق - أو ادعى الاقتناع - بأن مسألة الشراكسة إنما هي من تدبير الحكومة ، وأن كل ما عمله الأتراك والشراكسة هو شكواهم من « ظلم » العهد الجديد الذي أحال من أحالهم إلى الاستبداد . وجارى توفيق فى اقتناعه قنصلا إنجلترا وفرنسا . وأبدى توفيق عطفه الواضح على المتآمرين ، ولما كان إدوارد مالت قد انقلب على الثورة بعد أن عز عليه توجيهها وبعد أن اختلف مع بلنت وشكاه إلى الحكومة الإنجليزية ، فإنه عقد العزم على خلق أزمة سياسية ، خاصة وأن الأتراك والشراكسة شكوا إلى السلطان بعد القبض عليهم فوفروا له فرصة للتدخل فى شئون البلاد . ورغم أن فرمانات لم تذكر شيئاً عن تجريد الضباط من رتبهم ، فإن الصدر الأعظم احتج على الحكم الذى أصدرته محكمة الثورة التى كان يرأسها شركسى هو راشد باشا حسنى ، وأصدر أمراً بأن يرسل ملف القضية إلى الأستانة . ولم يكن الوزراء المصريون على استعداد للسماح للسلطان بالتدخل فى شئون البلاد الداخلية ، ولكنهم يهدثوا

الموقف طلبوا من الخديو أن يستعمل حقه ويعدل الحكم بحيث يترك الجناة مصر إلى حيث يشاءون . ورفض توفيق هذا العرض وأرسل الملف إلى الأستانة دون أن يستشير وزراءه؛ والحق أنه وجد الفرصة التي تسهل له استعداد أية قوة خارجية على الثورة، وكان «مالت» يسنده تماما في كل قرار يتخذه . ولهذا استتجد بالسلطان كعهده منذ بداية الثورة وطلب منه أن يرسل قوات عسكرية إلى مصر ، كما أشرك الهيئة القنصلية في بحث مسألة الشراكسة التي هي مسألة داخلية صرفة لا يصح للأجانب أن يتدخلوا فيها ، وأخيرا استقر الرأي على إبعاد الأتراك والشراكسة عن مصر ، ولكن بعد أن تعقد الموقف إلى حد كبير . ورحل عثمان رفقي ورفاقه إلى خارج البلاد ، وإن يكونوا قد رجعوا إليها مرة أخرى قبيل التل السدير ليضعوا خدماتهم تحت تصرف القوات الإنجليزية المعتدية .

ولما رأى الوزراء أن توفيقا قد استعدى الدول الأجنبية على البلاد ، اعلنوا أنهم سيقاومون بالقوة أى مندوب عثمانى يجيء إلى مصر لبحث مسألة الشراكسة ، ودون أن يأخذوا رأى الخديو دعوا مجلس شورى النواب إلى الاجتماع واتخاذ الإجراءات اللازمة للمحافظة على سلامة البلاد ، ولبحث شكاوى

مجلس الوزراء من الخديو توفيق الذى خضع للباب العالى والأجانب ، وفى ١٤ مايو ١٨٨٢ أرسل السلطان تلغرافا يوجّه فيه الوزراء المصريين على دعوة مجلس شورى النواب دون موافقة الخديو ، ويخبرهم أن الباب العالى يود المحافظة على الأوضاع الراهنة ، ويؤكد حقوق تركيا الإمبراطورية فى مصر وسيادة السلطان ، وإزاء هذا اجتمع المجلس بصفة غير رسمية فى منزل رئيسه محمد باشا سلطان ، واقترح أعضاؤه بحث قانون يحدد سلطات الخديو ، بحكم أن الوضع الحرج الذى انزلت إليه البلاد إنما هو ناتج عن عدم وجود قانون يحدد سلطات الحاكم وسلطات الوزراء . وأعلن عرابى صراحة أن الوقت قد حان للتخلص نهائيا من أسرة محمد على سبب مصائب البلاد . ولكن محمد سلطان ما لبث أن انشق على الثورة . وقد بدأ سلطان حياته فلاحا بسيطا فى نواحي المنيا ، واستطاع تحت حكم إسماعيل أن يترقى فى سلك الوظائف - رغم عدم حصوله على التعليم الكافى - حتى أصبح مفتشا عاما على الوجه القبلى واستطاع أن يستغل منصبه فى الاستحواذ على مساحات شاسعة من الأراضى فى مديرية المنيا بحيث أصبح يعتبر من كبار أعيان البلاد ، إن لم يكن عميدهم . وكان سلطان ينتهج أسلوبا انتهازيا

منذ بداية الثورة ، فأقام علاقات سرية مع الخديو ، وهذا هو السر في رضى توفيق عن تعيينه رئيسا لمجلس شورى النواب . وبمرور الزمن كان قلبه يمتلئ حقدا على عرابي وأنصاره ، خصوصا وأنهم لم يشركوه معهم في وزارة الثورة . ولهذا سهل على توفيق ومالت أن يجتذبا إلى صفهما ومعه عدد من أعضاء مجلس شورى النواب ، رغم أن غالبية أعضاء المجلس كانت لا تزال تناصر الثورة ، وحين قوى انشقاق سلطان من مركز الخديو نصح مالت توفيقا باتخاذ إجراءات صارمة ، فقطع توفيق كل علاقة بالوزراء . وفي ١٦ مايو كتب مالت إلى وزير الخارجية الإنجليزية كالآتي : —

« لقد توفرت لنا فرصة ممتازة للدخول في المعركة . فنحن الآن نأتى لتعزيد الخديو الذى يسنده مجلس شورى النواب والرأى العام ! لهذا لا يكون تدخلنا قضاء على أمانى المصريين الخاصة بالحكم الذاتى ؛ وإنما كل ما هنالك أننا نحرر مصر من الطغيان العسكرى » . وانهز توفيق ومالت كل فرصة للإشاعة القلق والرعب . ونشرت « الإيجيشان جازيت » المتصلة بالفتنصالية الإنجليزية مقالات عنيفة ضد عرابي والحركة الوطنية . ونصح مالت الأسر الإنجليزية بأن ترحل عن القاهرة إلى

الإسكندرية ، وأشار على توفيق باللجوء إلى البدو للقضاء على الثورة ، ولكن زميله الفرنسي منعه ومنع توفيقاً من تنفيذ هذه الحطة . وحاول محمد سلطان أن يستميل الوزراء إلى صفه بحيث يستطيع عزل عرابي والبارودي ثم تنحيتهما عن الحكم . ولكن الوزراء وقفوا جميعاً صفاً واحداً ، وقالوا إنهم يفضلون أن يستقيلوا استقالة جماعية ، وحينئذ يكون محمد سلطان مسئولاً شخصياً عن الأمن والنظام . وكان توفيق ومالت يميلان إلى إسقاط الوزارة برمتها وتولية وزارة جديدة . إلا أن لفنصل الفرنسي أخبرها بأن أية وزارة لا يكون فيها عرابي لن تكون لها قيمة على الإطلاق ، وأن من الأفضل قيام إنجلترا وفرنسا بمظاهرة بحرية يكون من نتيجتها الضغط على عرابي ورفقائه وإرغامهم على الرحيل عن مصر .

وكانت فكرة إرسال السفن ترجع إلى «فريسنيه» رئيس وزراء فرنسا الذي كان يسعى جاهداً إلى عرقلة المؤامرات الإنجليزية والحيلولة دون التدخل المسلح من جانب إنجلترا أو من جانب تركيا ، وذلك بسرعة تصفية الموقف الداخلي في مصر وإسقاط وزارة الثورة ، ووافقت إنجلترا على مضمون لكني تظهر تعاونها مع فرنسا . ووصلت سفن الدولتين

إلى الإسكندرية في ٢٠ مايو ، وقابل الشعب المصرى وصولها بالاستياء العام ، وغضب السلطان عبد الحميد حين علم بوصول السفن الإنجليزية - الفرنسية إلى مصر ، واحتج احتجاجاً شديداً لدى الدولتين واستنجد بالدول الأربع الأخرى بنفس اللهجة التى أبدأها من قبل بصدد المذكرة المشتركة . وفى الوقت الذى حاولت فيه إنجلترا وفرنسا تهدئة مخاوف السلطان ، أخذت الصحف الإنجليزية - وعلى رأسها « التايمز » و « الديلى نيوز » و « الاستاندرد » و « الديلى تلجراف » - أخذت تنشر الأنباء المثيرة عن الموقف فى مصر وتؤلب الرأى العام البريطانى على الحركة الوطنية المصرية .

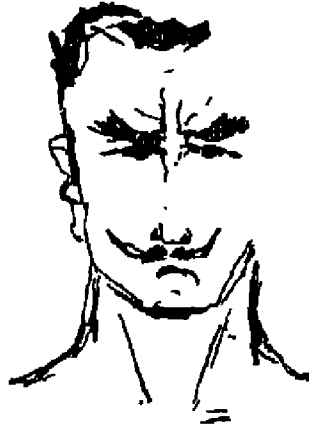
وفى ٢٥ مايو قدم ممثلا الدولتين إلى البارودى مذكرة على شكل إنذار تطلب استقالة الوزارة ورحيل عرابى إلى خارج القطر ورحيل عبد العال جلمى وعلى فهمى والبارودى إلى داخل القطر بعيداً عن القاهرة . ورفضت الوزارة المذكرة ، وقدمت استقالتها إلى الحديو محتجة على قبوله للمذكرة وموافقته على التدخل الأجنبى فى شئون البلاد . وقبل توفيق الاستقالة فى الحال طبقاً لنصيحة القنصلين وبدأت مساعى متعددة لإبعاد عرابى عن القطر وإغرائه بالمال . ولكنه رفض كل هذه

العروض مستنداً إلى شد زملائه لأزره ووقوفهم جميعاً موقف التضامن إزاء التدخل الأجنبي في نظام الحكم في مصر، وعرضت الوزارة على شريف فرفض قبولها مشروطاً حل الجيش واستقدام قوات تركية لتصفية الثورة . كما أنه نصح الخديو بأن يطلب من الباب العالي أن يرسل مندوباً من قبله مزوداً بأوامر من السلطان تقضى بتوجه عرابي إلى الأستانة . وفي ٢٧ مايو احتج ضباط حاميتي الإسكندرية والقاهرة وجنودها لدى الخديو ، واصلوا رفضهم للمذكرة الإنجليزية الفرنسية . وفي اليوم التالي توجه إلى الخديو وفد من زعماء البلاد يضم شيخ الإسلام وبطريك الأقباط وحاخام اليهود وعدداً من الشخصيات البارزة ، مطالبين برجوع عرابي إلى وزارة الحرية حتى يتسنى بوجوده فيها أن يستقر الأمن والنظام في البلاد . فاضطر توفيق وهو صاغر - بالرغم مما نصحه به القنصلان - إلى إعادة عرابي إلى وزارة الحرية ، قائلاً إنه إنما يعيده إليها إزاء الرغبة العامة للشعب .

وهكذا عاد زعيم الثورة إلى مركز القيادة من جديد فاهتز مركز توفيق ومركز إنجلترا وفرنسا ، وطبقت شهرة عرابي الآفاق في العالم الإسلامي لنجاحه في تحدى الاستعمار . وعلت

الآصوات بضرورة خلع توفيق - بل إن مالت ذاته رأى أنه من المستحيل إقراره على العرش ، وأن الجميع في مصر - من مواطنين وأجانب - يقفون ضده . وهكذا ناقض مالت نفسه ، إذ أنه كان منذ وقت قصير قد أرسل إلى حكومته يخبرها بأن الشعب المصرى جميعاً - باستثناء العسكريين - يسند الخديو III ولم يبق أمام إنجلترا وفرنسا سوى التمهيد للتدخل المسلح بدعوة الدول الأخرى لمناقشة المسألة المصرية وإظهار أحوال مصر في صورة تبرر ما أزمعنا القيام به . ولما كان فريسينيه رئيس الوزارة الفرنسية متردداً بين الأشكال المختلفة للتدخل المسلح ، يواجه معارضة شديدة في الداخل بصدد المسألة المصرية ، ولا يستقر على قرار ، فقد رأت إنجلترا أن الفرصة سانحة للتدخل المنفرد ، ولم يبق أمامها سوى إيجاد المبرر . وأرسلت الدعوة إلى المؤتمر إلى الدول الكبرى وإلى السلطان . ولكن السلطان اختار وسيلة الخاصة للتدخل ورفض فكرة المؤتمر من أساسها لأنه لم يكن يميل إلى أن تشترك أوروبا في مناقشة مسألة خاصة بإحدى ولاياته ، ولأنه كان يدرك من سوابق المؤتمرات الأوروبية التي اجتمعت لبحث شؤون الإمبراطورية العثمانية أن أوروبا تقف دائماً ضد مصالح تركيا . لهذا قرر

إرسال بعثة خاصة إلى مصر رغم معارضة الدولتين . وكان هدف هذه البعثة - التي كان يرأسها المشير درويش باشا - تصفية الموقف الداخلي في مصر ومواجهة الدول الأوروبية بالأمر الواقع بحيث لا يكون ثمة مبرر لفكرة المؤتمر . ووصلت البعثة إلى الإسكندرية في ٧ يولية .



بعثة درويش باشا

كان درويش من كبار الموظفين الأتراك ، وكان قد حصل على صمعة طبية بعد أن أخذ ثورة نشبت في ألبانيا في عام ١٨٨١ ، كما كانت بعثة درويش تضم سادن الحرمين الشريفين أحمد أفندي أسعد الذي كان السلطان يستبقيه في الأستانة ويستخدمه في اتصالاته السرية برعاياه العرب وياخذ رأيه في كل ما يتصل بحركة الجامعة الإسلامية : وكان أحمد أسعد قد أرسل إلى مصر في ثلاث بعثات أخرى ونجح في عقد صلات الودمع زعماء الحركة الوطنية باسم الرابطة الدينية . كما ضمت البعثة أيضا بعض كبار الضباط الذين كلفوا بتفقد التحصينات المصرية ودراسة أحسن الطرق لإرسال قوات إلى البلاد .

وفي التوصيات التي زود بها درويش جاء أن هدف بعثته سند الحديو والمحافظة على أوضاع مصر الراهنة وإعادة النظام إلى البلاد وتصفية الموقف فيها ، وكلف بحل مجلس شورى النواب إذا ما سنحت الفرصة وبالقبض على الأشخاص الذين يخشى مقاومتهم وإرسالهم إلى السودان إذا أمكن ذلك .

وحين وصلت البعثة إلى الإسكندرية أعلن درويش سكان مصر - مصريين وأجانب - أنه مبعوث السلطان الخاص ، وطلب من المصريين أن يطيعوا الخديو ممثل السلطان ، مؤيدا طلبه بالاستشهاد ببعض الآيات القرآنية . ورحب الأتراك والشراكسة بمجيء درويش ، كما رحب المصريون بمجيء أحمد أسعد .

ولم ينجح درويش مع أى فريق من المصريين باستعمال التهديد والوعيد ، وأرسل إلى الأستانة يذكر أن الشعور العام فى صف عرابى . وفى إحدى محادثاته مع عرابى ورفاقه هددهم بأنه مخول أن يقبض عليهم إذا لم يسمعوا كلامه ، فردوا عليه بأنهم ليسوا دون سند فى البلاد . وحاول أن يستميل المشايخ الأزهر إلى صفه فرآهم معادين لسياسته ، وقالوا له إن العربان معهم وأن عرابى يسير فى الطريق للصواب - بل إن أحد المشايخ ألقى خطبة عنيفة فى حضور درويش مطالبا بانسحاب الأساطيل وخلع توفيق « الذى استقدم هذه الأساطيل » وإعادة الوزارة المستقيلة ، فصرف درويش المشايخ بعنف مما ترتب عليه قيام طلبة الأزهر بالمظاهرات احتجاجا على معاملة درويش للمشايخ . وعقد درويش جلسة مع المجلس الأعلى للعربان . ولما وجدهم معادين لسياسته لجأ إلى أسلوب التهديد دون جدوى وأبدى

لأعضاء مجلس شورى النواب عدم رغبته فى استمرار المجلس ،
فثاروا عليه وأصروا على استئناف الحياة النيابية وقالوا له إنهم
لا يوافقون على استقالة الوزارة .

ولما وجد درويش أن ممثلى الأمة جميعا يقفون موقف العداء
أرسل إلى الأستانة يطلب تزويده بقوات عسكرية . أما أحمد
أسعد قد اتبع سياسة مخالفة حين حاول التودد إلى الزعماء
المصريين الذين سبق لهم أن اتصلوا به فى بعثاته السابقة إلى مصر
وزودوه فى آخر بعثته منها بعريضة عليها آلاف الإمضاءات
وإمضاءات أكثر من ثلاثين من أعضاء مجلس شورى النواب ،
مطالبة بخلع توفيق الذى استقدم الأساطيل الأجنبية والمستعد
لتسليم مصر لإنجلترا وفرنسا .

وأرسل أسعد إلى الأستانة بعد اتصاله بالمصريين يؤكد أن
العسكريين يحظون بتأييد الشعب كله ويبدى استياءه من السياسة
التي اتبعها درويش . أما مالت فقد رأى وسيلة أخرى لحل المسألة
المصرية . كان قد أرسل إلى لندن فى ٧ مايو ما يلى : « إنتى
أرى ضرورة حدوث ارتباطات حادة قبل الوصول إلى أى حل
شاف للمسألة المصرية ، وأنه من الحكمة التعميل بهذه الارتباطات
بدل محاولة تأخيرها » . ولكي تحدث هذه الارتباطات قام مالت

- بالاتفاق مع القنصل اليونانى - بتسليح الجاليتين اليونانية
والبريطانية فى الإسكندرية .

وكانت أقل حادثة كفيلة بالتعجيل بمحدث هذه الارتباكات
ولا بأس من تديرها أو استغلال الفرص لإثارتها أو دفع توفيق
ورجاله إلى خلقها .

وتعرضت الاسكندرية فى ١١ يونية لمذابج دامية قتل فيها
عدد كبير من المصريين والأجانب ، حمل القنصل الفرنسى
مسئوليتها للخديو وعمر لطفى حاكم الإسكندرية (وكان مواليا
للخديو) ولما لث شخصيا . وهكذا توفرت لإنجلترا الفرصة
لتحقيق سياستها الاستعمارية ، واستغلال الظرف للدعوة إلى
المؤتمر من جديد ثم اتخاذ المؤتمر ذاته وسيلة لتغطيه التدخل
المسلح .

واستاءت السلطات التركية للأبناء الواردة من الإسكندرية
إذا اعتقدت أنها لا بد ستؤثر على نجاح بعثة درويش وبالتالى
ستؤدى إلى محاولة عقد المؤتمر الأوروبى . وحين حاول جرنفل أن
يحمل الباب العالى مسؤولية حوادث الإسكندرية نسبة إلى وجود
درويش فى مصر ، كان رد السفير التركى فى لندن أنه لا يمكن
تحميل درويش أو الحكومة التركية مسؤولية ما حدث وذلك

بسبب عدم وجود قوات تركية في مصر ،
وفي العالم الإسلامي اشتد تأييد الرأي العام لعراقي بطل
الإسلام والمدافع عنه في وجه إنجلترا وفرنسا . وكان رجوعه
إلى وزارة الحربية قد قوبل بالفرح في تونس ومراكش
وسوريا والجزائر وغير ذلك باعتباره هزيمة لإنجلترا وفرنسا ،
مما أدى إلى ازدياد ثقة المسلمين بأنفسهم . وفي مصر أدت حوادث
الإسكندرية إلى ازدياد التفاف السكان حول عراقي وإلى العمل
على تقوية الاستحكامات في الإسكندرية والقاهرة ومنطقة قناة
السويس . وأرسل درويش إلى الأستانة يقول إن كل طبقات
السكان في مصر بما فيهم مشايخ العربان - يقفون في صف عراقي .
وأصدر علماء الأزهر فتوى مضمونها أنهم لن يطيعوا السلطان إذا
ما انضم إلى الأوروبيين وأخذوا يوثقون علاقتهم بعلماء طرابلس
وتونس . وحاول علماء البلدان الثلاثة أن يقنعوا أحمد أسعد بأن
نجاح قضية الإسلام في شمال إفريقيا - بل وجود الإسلام على
الإطلاق يتوقف على بقاء عراقي في الحكم ، وأخبر أسعد
درويش بكل هذا ، ولما كانت المراسلات التي تصل إلى السلطان
من تونس وطرابلس في صف عراقي ، مصورة إياه باعتباره
شخصية لا غنى عنها في حركة الجامعة الإسلامية ، فقد مال علماء

القصر السلطاني إلى عرابي ، ومن ورائهم شخصيات لها قيمتها في العاصمة التركية .

لكل هذا لم يسع السلطان سوى سند عرابي حتى لا يؤدي عكس ذلك إلى الإضرار بحركة الجامعة الإسلامية . ومن هنا أرسلت الأوامر إلى درويش بأن يتفق مع عرابي وأن يتصل بالقناصل لكي يساعدوه على إقرار الموقف ؛ بحيث لا تفكر أوروبا في التدخل . لهذا حاول درويش التوفيق بين الحديو وعرابي ، واستعان بقناصل الدول الكبرى في تأليف وزارة جديدة . وتم الاتفاق على تولى وزارة يرأسها إسماعيل باشا راغب الذي كان من رجال الحركة الوطنية — إن لم يكن رئيسا للحزب الوطني — أيام إسماعيل . ولم يقبل توفيق هذا الحل إلا بعد أن هدد قنصلا ألمانيا والنمسا بخلعه كما خلع والده من قبل ، وبعد أن أنبأ مالت وحمله مسؤولية الأزمة التي كانت تمر بها مصر . ورأى القنصل الفرنسي أن أحسن حل للموقف هو الالتجاء إلى القوة المسلحة لاسترجاع مركز فرنسا في مصر وفي أوروبا وشمال إفريقيا . وتجددت فكرة انعقاد المؤتمر . وأرسل الحديو مبعوثا خاصا إلى أوروبا يستعدي الدول الكبرى على الحركة الوطنية ، ويطالب بالتدخل الأوروبي المسلح ، مفضلا أن يكون هذا التدخل إنجليزيا .

ضرب الإسكندرية

الجمعية مؤتمر من سفراء الدول الست في الأستانة في ٢٣
يونية ١٨٨٢ لبحث المسألة المصرية . وبعد يومين
أبرم المؤتمر ميثاقاً للنزاهة تعهدت فيه كل دولة من الدول الممثلة
في المؤتمر بأنها في كل اتفاق يتم بشأن تسوية المسألة المصرية
لا تبغى إلى احتلال أى جزء من أراضى مصر أو الحصول على
امتياز خاص بها أو نيل امتياز تجارى لرعاياها لا يخول لرعايا
الحكومات الأخرى . وفي ٢٧ يونية اقترح السفير الإيطالى على
الأعضاء أن تقرر الدول الامتناع عن التدخل المنفرد فى مصر
مادام المؤتمر منعقدا ، ووافق المؤتمر على هذا الاقتراح ولكن
بعد أن أبطل « اللورد دفرن » سفير إنجلترا مفعوله بإضافة فقرة
« إلا فى حالة الضرورة القصوى » ، ثم قرر المؤتمر أن يعهد
إلى تركيا بإعادة الأمن فى مصر . ورفضت الحكومة التركية
العرض ؛ لأنها لم تشأ أن تظهر تركيا بمظهر المندوبة عن الدول
المسيحية فى شأن يتعلق بإحدى ولاياتها . واستند الباب العالى
فى رفضه إلى تقارير درويش التى أثبتت أنه لا يوجد فى أحوال
مصر ما يستدعى التدخل .

وكانت تركيا تخشى أن يؤدي تدخلها المسلح في مصر إلى نشوب الثورة في الجزيرة العربية وسوريا اللتين كانت تربطهما بمصر روابط اللغة والعطف على ثورتها . وفي اجتماع عقده مجلس الوزراء التركي في ٢٥ يونية قرر الوزراء أن مصر لم تكن في حالة ثورة على السلطان ، وأن النزاع بين توفيق وعرابي لا يتضمن عملاً ثورياً . وعند تقريرهم عدم التدخل في مصر ، كانوا يفضلون إغضاب أوروبا على هدم هبة السلطان ومركزه كخليفة للمسلمين .

وبعد أن أدركت إنجلترا أن تركيا لن تتدخل ، قررت التمهيد لتدخلها هي بالتعرش بالسلطات العسكرية في الإسكندرية ، وذلك رغم هدوء الأحوال في مصر بعد تولية وزارة راغب . وادعى الأميرال بوشامب سيمور قائد الأسطول البريطاني في مياه الإسكندرية أن السلطات العسكرية في الإسكندرية تقوم بتحسين طوابي الإسكندرية وسد مداخل المدينة خلف الأسطول البريطاني . وفي ١٠ يولية أُنذر السلطات المصرية بأنه سيبدأ ضرب الإسكندرية بعد مضي ٢٤ ساعة إذا لم تسلم له قلاع الإسكندرية ليحتلها ويزع سلاحها . وبلغت إنجلترا الدول بهذا القرار وذكرت أن ضرب الإسكندرية

إما هو « دفاع شرعى عن النفس لا تترتب عليه أية نتائج او يخفى أى نوايا أخرى » . وكان عرابى لا يعتقد أن إنجلترا ستنفذ تهديدها . فقد كان يعتقد أن إنجلترا لن تجرؤ على اتخاذ هذه الخطوة خوفا مما يترتب عليها من نتائج فى العالم الإسلامى وبين مسلمى الهند . حينئذ كانت علاقات عرابى بالسلطان قد توثقت ، حتى أنه قد قيل إن عبد الحميد جعله مسئولا عن الدعاية لحركة الجامعة الإسلامية فى شمال أفريقيا مستغلا الشعبية التى أحرزها عرابى فى العالم الإسلامى ، إلى أن تسنح الفرصة المناسبة للتخلص منه .

وقد أرسل درويش برقية إلى الباب العالى فى ٥ يولية (وكانت أعمال التحرش من جانب الإنجليز قد ظهرت للعيان) وجاء فى هذه البرقية ما يلى : « إن عرابى يعلن أنه لا يخشى الإنجليز الذين ستقابل أعمالهم العدوانية - إذا ما حدثت - بإجراءات انتقامية تؤدى إلى دمارهم . وقد وصلت إلى معلومات تؤكد جدية كلمات عرابى هذه . وبما لاشك فيه أن إطلاق بندقية واحدة سيؤدى إلى قيام المسلمين بالثورة من قلب إفريقيا إلى أقصى الهند... وهذا « الاتحاد » لا يتكون فقط من طرابلس وبنغازى والسودان وبقاع أخرى قاصية ،

بل إنه يضم كذلك تونس والجزائر بوجه خاص .
والحق أن العراقيين كانوا قد قاموا بحملة نشاط واسعة
النطاق : فكتبوا إلى الأمير عبد القادر زعيم الثورة الجزائرية
الذي كان مقيماً بدمشق بعد سجنه لفترة طويلة ، كما كتبوا
إلى الشيخ السنوسي في ليبيا ولعرب طرابلس مما ترتب عليه
اتصال الحكومة الإنجليزية بالسلطان ومحاولة التأثير عليه
لكي يرسل أوامر مشددة إلى حكام طرابلس وبنغازي .
ودخل العراقيون في اتصال مع المهدي في السودان . وكان
مقيضاً لكل هذه الاتصالات أن تتوثق وتؤتي أكلها فيما لو أتيح
لها الزمن الكافي .

وقد كتب عرابي إلى بلنت (وكان في لندن) في ٢ يولية مايلي :
« لتؤكد انجلترا أن أول بندقية تطلقها على مصر ستحرر
المصريين من كل المعاهدات والاتفاقيات ، ومعنى ذلك انتهاء
الديون والمراقبة . سندمر قنواتنا ونقطع مواصلاتنا ونستغل
الحماسة الدينية الإسلامية لإعلان الجهاد المقدس في سوريا
والجزيرة العربية والهند ... وقد ألقيت الخطب بهذا المعنى في
مساجد دمشق ، وتم الاتفاق مع الزعماء المدينين في كل بلد
في سائر أرجاء العالم الإسلامي . وإني أحذر مرارا وتكرارا

من أن أول ضربة توجهها إنجلترا أو حليفاتها إلى مصر
ستسبب في إسالة الدماء أنهارا في طول آسيا وإفريقيا
وعرضهما . وأرسل بلنت فحوى هذه الرسالة إلى جلادستون
وأذره بأن التهديدات التي تحتويها ستنفذ ، وبأن المصريين
سيحرقون مدنها كما أحرق الروس موسكو في عام ١٨١٢ ،
وأنهم سيقطعون قنواتهم كما عمل الهولنديون في عام ١٦٧٤ ،
وأضاف قائلا : إن هذا هو القرار اليأس الأخير الذي اتخذ
شعب يرى نفسه مهددا بخضوعه مرة أخرى للعبودية .

واجتمع مجلس في الإسكندرية لبحث الإنذار البريطاني حضره
عراي ودرويش والحديو . وبعد أن ناقش المجلس الإنذار ،
كان رده عليه كالآتي : « لم تأت مصر شيئا يقتضى إرسال هذه
الأساطيل المتجمعة . ولم تعمل السلطة المدنية ولا السلطة
العسكرية أى عمل يسوغ مطالب الأميرال إلا بعض إصلاحات
اضطرارية في أبنية قديمة . والطوايى الآن على الحال التي كانت
عليها عند وصول الأساطيل . ونحن هنا في وطننا ومدينتنا ،
فنحننا — بل من الواجب علينا — أن نتخذ عدتنا ضد
كل عدو مباغت يقدم على قطع أسباب الصلات السلمية التي تقول
الحكومة الإنجليزية إنها باقية بيننا . ومصر الحريصة على حقوقها

الساهرة على تلك الحقوق وعلى شرفها لا تستطيع ان تسلم أى مدفع ولا أية طاية دون أن تكره على ذلك بحكم السلاح . فهى لذلك تحتج على بلاغكم الذى وجهتموه اليوم ، وتوقع مسئوليات جميع النتائج المباشرة وغير المباشرة التى تنجم إما عن هجوم الأساطيل أو عن إطلاق المدافع على الأمة التى تقذف فى وسط السلام القنبلة الأولى على الإسكندرية المدينة الهادئة ، مخالفة بذلك لأحكام قانون حقوق الإنسان ولقوانين الحرب .

ولكن الأسطول البريطانى لم يتورع - رغم ذلك كله - عن ضرب المدينة فى ١١ يولية . وقال جرنفل وزير الخارجية البريطانية فى تفسير هذا الإجراء إنه لما يضعف مركز دولة كبرى تقوم قوتها فى أساسها على الأساطيل أن تقوم بمظاهرة بحرية دون (وخز) ما !! وما لبثت النار أن شبت فى المدينة الآمنة ، وأخذ أهلها فى الرحيل عنها . ثم سطا عليها البدو وأعملوا فيها السلب والنهب ونزلت بها قوات بريطانية لتحتلها بعد وقت قصير ، ولتوفر للخديو حرسا خاصا ، فشجعه ذلك على أن يرتقى فى أحضان الإنجليز ويسفر عن نياته السيئة إزاء الحركة الوطنية . وفى الوقت الذى استعد فيها المصريون للحرب قدر طاقتهم ، بعد أن بدأت انجلترا أعمالها العدوانية ، اشتعلت نار الحماسة

فى العالم الإسلامى بعد أن ترامت إليه أخبار ضرب الإسكندرية .
وقد كتب قنصل انجلترا فى دمشق إلى حكومته فى ١٤ يولية ،
« لاشك أن ثمة اتجاهًا لدى بعض الأشخاص ، ومعظمهم من
المسلمين ، إلى اعتناق آراء الحزب الوطنى المصرى . وإننى أعتقد
أن مبعوثين عن هذا الحزب قد أرسلوا إلى دمشق وإلى أجزاء
أخرى من سوريا وفلسطين بقصد نشر أفكاره » . وفى ٢٠
يولية كتب والى سوريا إلى السلطات التركية : « لقد أفدتكم
تلغرافيا بهياج الخواطر الذى ترتب على أحداث مصر . ولكى
يستميل عرابى باشا سكان البلاد المجاورة ، فإنه لا ينفك يرسل
العلماء إلى دمشق حتى يمكنه بذلك أن يدعم إجراءاته
العسكرية ... وقد ذهب معظم العلماء وأعيان المدينة وكثير
من الناس لمقابلة مندوبه (وهو أحد مشايخ الأزهر) واجتمعوا
به فى المسجد الأموى ، فعرض عليهم الفتوى التى تدعم مركز
عرابى وقال لهم : إن مصر باب الكعبة وبيضة الإسلام ،
وأن هدف الإنجليز هو القضاء على الإسلام والاستيلاء على
الكعبة الشريفة ، وأن على كل مسلم أن يهب لمساعدة عرابى
بقواته وأمواله طالما أن هذه الحالة تعيد إلى الأذهان قصة
العرب فى أسبانيا . وقد كان لهذه الخطبة أثر بالغ فى الناس » .

وأرسل عرابي خطابات إلى وإلى الحجاز وإلى أشخاص آخرين يذكر لهم أنه قد حمل السلاح للدفاع عن بلاده ، ويطلب منهم أن يدعوا الله في صلواتهم أن يكمل جهوده بالنصر ، فوعده بأن يدعو له في صلواتهم وأن يرسلوا إليه المساعدة . ولكن القنصل البريطاني في جدة كان يرى أن انجلترا لن تواجه متاعب في الحجاز إلا إذا اصطدمت بالسلطان .

كذلك أرسل عرابي مندوبيه إلى الهند وتونس وطرابلس لاكتساب عطف الرأي العام الإسلامي والإعداد للجهاد .

وأرسل القنصل البريطاني في غاليبولي إلى حكومته في ٢٨ يولية ، يؤكد أن شعور السكان المسلمين معاد للأوروبيين بعد ضرب الإسكندرية . كما أرسل القنصل البريطاني في سالونيك في ٨ أغسطس يذكر أن السكان بوجه عام يعتبرون انجلترا وفرنسا عدوتين لدينهم ولكيانهم وأن هذا الشعور لا يقتصر على العوام بل إنه يوجد كذلك لدى ضباط الجيش والعلماء ، وأن ضباط الجيش متحمسون ضد انجلترا ، وأنهم يعتبرون عرابي بطل الإسلام ، ومن ثم عطف السكان عليه وعلى الثورة المصرية . وفي الأناضول اشتعلت المشاعر ضد انجلترا - بل إن بعض السكان هناك صرحوا بأنهم سينتقمون من

المنسحين إذا ما احتل الإنجليز مصر، وبدأ الناس في الأستانة في التطوع للانضمام إلى الجيش المصري . ولم يكن هياج الرأي العام الإسلامي في الهند بأقل منه في العالم العربي وفي البلاد الإسلامية الأخرى . لهذا أزمعت إنجلترا أن تقضى على الثورة المصرية في أسرع وقت ممكن حتى لا تواجه تحدياً حاصفاً لنفوذها في كل مكان وحتى لا يستغل السلطان الفرصة فيرسل قواته إلى مصر ويؤكد مركزه كخليفة .



منشور السلطان ضد عرابي

بسم أن رجع أحمد أسعد إلى الآستانة حاول جهد طاقته أن يثني السلطان عن إرسال قواته إلى مصر على اعتقاد أن ذلك من شأنه أن يثير الرأي العام الإسلامي ضد الخلافة . وقال أسعد بضرورة سند هذه القوات - إذا لم يكن هناك مفر من إرسالها - للحزب الوطني المصري وبذلك تحمل سلطة السلطان محل سلطة عرابي . كما ألح أسعد في طلب خلع توفيق .

ولكن السلطان كان قد صمم على إرسال قواته إلى مصر إنقاذاً للموقف بعد أن تبين له أن إنجلترا جادة في إجراءاتها على أثر ضرب الإسكندرية . لهذا قرر أن ينضم إلى مؤتمر السفراء في الآستانة ، فأرسل إليه مندوبين وافقوا في الحال على إرسال قوات عسكرية إلى مصر .

واحتج السلطان على نزول القوات الإنجليزية في الإسكندرية وطالب بسحبها . وكان رد إنجلترا أن هذه القوات إنما نزلت إلى البر لإقرار الأمن والنظام وليس بقصد الاحتلال ، وأنها ستبقى

لحماية الحديد الذي لم يتخذ السلطان أية خطوة لحمايته ، ولحماية مصالحها ومصالح أوروبا . وطالب اللورد دفرن (سفير إنجلترا في الآستانة ومندوبها في المؤتمر) السلطان بأن يعلن عرابي حاصياً وألا تتوجه القوات التركية إلى مصر إلا بعد الاتفاق مع إنجلترا . وفي نفس الوقت أرسلت الأوامر إلى السلطات البحرية الإنجليزية في المياه المصرية بأن تمنع نزول القوات التركية إلى الأراضي المصرية ما لم يوقع هذا الاتفاق .

ورد المندوب التركي في المؤتمر بتأكيد إخلاص عرابي للسلطان وأنه ليس حاصياً وأن إعلان عصيانه لا قيمة له وأنه سيؤدي إلى الإيعان في تعقيد الموقف . ورغم ذلك فأمام ضغط إنجلترا وافق الصدر الأعظم على مبدأ إعلان عرابي حاصياً ، ولكن ليس قبل نزول القوات التركية إلى الأراضي المصرية . وأخذت تركيا تعد قواتها اللازمة لهذا الغرض . وكانت روح الجند الأتراك في صف عرابي ، وقال بعض الضباط للجنود إن السلطان إنما يرسل قواته إلى مصر لمساعدة عرابي ضد الإنجليز . وفي الآستانة اشتد عطف السكان على الثورة المصرية ، وكان يدعى لعرابي في المساجد . وأرسلت خطابات مجهولة إلى السلطان تهدده بالخلع إذا ما أعلن عرابي حاصياً . وسندت صحيفة

« الحوادث » عرابي وقالت إنه ليس عاصيا لتوفيق الذي لم يتمش مع نصوص فرمانات توليته (ملاحظة إلى أنه هو العاصي وليس عرابي) ، واعتضت بعض دوائر الأستانة على فكرة عقد الاتفاق مع انجلترا على اعتبار أن التعاون معها ضد المدافعين عن الإسلام مما يترتب عليه تأثير سيء على جماهير المصريين والسوريين والعرب .

واستعملت في مساجد الأستانة لهجة شديدة ضد انجلترا ودعا أحد الخطباء إلى حمل السلاح دفاعاً عن الإسلام وقال : « إذا ما طلب عرابي مالا جمعناه له ، وإذا ما طلب جنداً فسنحمل جميعاً السلاح لمساعدته . إنه رجل مبعوث من قبل الله ومقيض له أن يحمينا نحن الأتراك المؤمنين » .

وأمام كل هذا رأى السلطان عبد الحميد أن يصفي الموقف في مصر عن طريق العلماء ، فكتب إليهم يطلب منهم أن يمنعوا المصريين من إرسال المؤن والمنطوعين إلى عرابي ، وأن يقنعوا عرابي بإلقاء السلاح باسم الشريعة . ورد ثلاثون من كبار علماء الأزهر على السلطان يحذرونه من هذه السياسة ويقولون له إنهم إنما يطيعون أوامره وأوامر الخديو طالما أنها تتمشى مع أحكام الشريعة ، وأنهم سيعتبرون عرابي قائداً عاماً للقوات المصرية

طالما أن أعماله تتمشى مع الشريعة ، وأن المصريين لن يلقوا
السلاح إلا إذا انسحب الإنجليز من الإسكندرية ، وأنهم مجمعون
جميعاً على المطالبة بخلع توفيق وعلى أن القضية المصرية ليست
متصلة بشخص عرابي بل بخلاص البلاد .

وأمام رد العلماء وأمام إلحاح إنجلترا وقع السلطان
الاتفاق الحربي مع الإنجليز بخصوص تنسيق إرسال القوات
التركية إلى مصر كما أصدر إعلان عصيان عرابي الذي نشر في
صحف الأستانة في سبتمبر سنة ١٨٨٢ ، ولم ترحب صحف
الأستانة بصدور المنشور ضد عرابي ، وهو المنشور الذي صدر
باسم الحكومة التركية لا باسم السلطان . وكذلك لم ترحب به
إنجلترا لأنها كانت تود أن يصدر باسم الخليفة حتى يكون شديد
الوقع في العالم الإسلامي . هذا إلى أنها لم تبرم الاتفاق الحربي
لأن السلطان عدل مشروعه بحيث يجعل نصه غير مخرج له في
العالم الإسلامي . وتعللت إنجلترا بهذه التعديلات لترفض الاتفاق
الحربي ولكن بعد أن كسبت منشور إعلان عرابي عاصياً .
وأسرعت في إرسال نسخ منه إلى مصر لتوزيعه على السكان
وعلى القوات المصرية المحاربة . وأخذ مندوبو توفيق في منطقة
قناة السويس - وعلى رأسهم محمد سلطان - يوزعون المنشور

فى كل مكان ، فانضم اليهم بعض ضفاف الايمان وتخلوا عن القضية القومية .

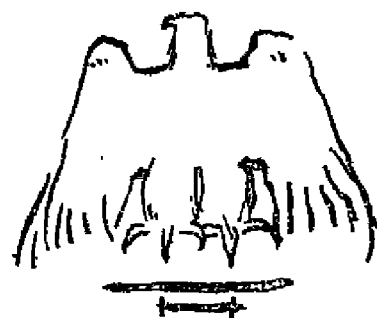
ولكن ذلك كله لم يفت فى عضد المصريين الذين أبدوا استعدادهم للدفاع عن بلادهم من البداية الى النهاية ، معتمدين على أنفسهم قبل كل شئ آخر . دافعوا دفاع الأبطال أثناء ضرب الإسكندرية . وحين أدخلوها غداة ضربها أسرعوا فى إقامة الاستحكامات فى كفر الدوار اعتقادا منهم أن الإنجليز سينون الوصول إلى القاهرة من هذا الطريق . وأسهم أبناء البحيرة والغربية والمنوفية فى هذا العمل تحت إشراف المهندس محمود فهمى وغيره من رجال المهندسة الحربية . وتبرع الأهالى بالحيل والحبوب والنقود والميرة اللازمة للجيش ، واحتشد المتطوعون للجيش ولسائر الأشغال العسكرية فى كل مكان .

ولكن الإنجليز كانوا قد عقدوا العزم على مهاجمة مصر من ناحية الشرق . وقد فكر بعض زعماء الثورة فى ضرورة ردم قناة السويس لعرقلة تحركات الأسطول الإنجليزى فى حالة غزو البلاد من ناحية الشرق . ولكن فردنان دلسبس أقنع عرايا بأن ليس ثمة خطرا على القناة أو على حيادها . ولكن لما تبين قادة الثورة فجاجة وعود دلسبس أسرعوا فى إنشاء

خط دفاعي عند التل الكبير وقرر عرابي نقل مركز القيادة إلى الجبهة الشرقية ، ومنذ أن استقر الجيش وقيادته بالتل الكبير أخذت البلاد ترسل إليه آلات الحرب ، ثم توالى مجيء الجنود من مشاة وفرسان ومدفعية ، وتنافس الجنود والأهالي في إنشاء الحصون وإقامة المتاريس . ورغم التفوق الظاهر الذي كان يتمتع به الجيش البريطاني الذي كان خلاصة القوات المحاربة في الإمبراطورية البريطانية ، فقد استبسل المصريون في المسخوطة وفي الجفر والقصاصين ، وأخيراً - وليس آخراً - في التل الكبير برغم أحداث الحياة السافرة التي بدرت عن أمثال خنفس ومن استطاع الإنجليز شراءهم بالمال . وفي يوم المعركة الفاصلة في التل الكبير (١٣ سبتمبر سنة ١٨٨٢) التي بوغت فيها المصريون ، وقف الأبطال المصريون الميامين : محمد عبده وأحمد فرج وعبد القادر عبد الصمد وحسن رضوان موقفاً مشرفاً . وكان محمد عبده يعلم ألا نفع ولا جدوى ولكنه وقف برجاله في وجه الزحف الإنجليزي حتى فنوا جميعاً .

وطلب عرابي قوات أخرى بعد الهزيمة ، ولكن زعماء القاهرة كانوا قد يئسوا فأشاروا على القائد بالتسليم ، وفعلاً سلم عرابي نفسه في اليوم التالي بعد أن فت المنشور التركي

فى عضده وأظهره بمظهر الحائن ! وبعد التل الكبير أخبرت
انجلترا دوائر الباب العالى أنه لم يعد ثمة حاجة إلى القوات
التركية ، وأرسل توفيق - باممه وباسم الشعب المصرى ! -
يشكر الحكومة البريطانية على صنيعها ، ودخل القاهرة على
رأس جيش الاحتلال ، وفرضت انجلترا نفسها على البلاد فرضا
واستمرت قواتها فى أراضيها أكثر من سبعين عاما رغم أنها
قد أعلنت أن الاحتلال مؤقت . ولم تخرج منها فى عام ١٩٥٦ ،
إلا بعد أن لفظت أرضها المقدسة الخونة والعملاء ، وبعد أن
ثبت أن شمس الاستعمار إلى مغيب .



خاتمة

ومن الطبيعي أن تعمل إنجلترا ، بعد قضائها على الثورة ، على تصفية آثارها والتمهيد لسياستها الاستعمارية . أجريت المحاكمات لزعماء الثورة - وعلى رأسهم عرابي . وقبل أن يصدر الحكم أعلنت الحكومة الإنجليزية عزمها على ألا يحكم على عرابي بالإعدام ؛ وقوبل هذا الإعلان في مصر بالوجوم - وتقول البعض بأن ذلك إنما هو « ثمن » تواطؤ عرابي مع وولزلي في التل الكبير ، وأشاع أعداء الثورة هذا الافتراء فكان له صدى مرير في النفوس .

وسُرح جيش الثورة وشتت من اشتركوا فيها ونُبِث الخديو على عرشه ، وأطلقت له المباحر « لتعاونه » مع العهد الجديد ، وحكم على زعماء الثورة - وعلى رأسهم عرابي والبارودي - بالنفي المؤبد إلى سيلان . وهناك أمضوا ردحا من الوقت حتى صدر الحكم بالإفراج عنهم في أوائل القرن العشرين .

وفي المنفى كتب البارودي روائعه الشعرية التي تصور

أحاسيسه عن الثورة وتعب عن أشواقه إلى الوطن :
يا روضة النيل لا مسكتك بائقة
ولا عدتك مماء ذات إغداق
ولا برحت من الأبواب في حل
من عسجد عبقرى الوشى براق
مرعى جياى ومأوى جيرتى وحمى
أهلى ومنبت آدابى وأعراق
وخطاً عرابى مذكراته التى نشر بعضها بعنوان « كشف
الستار عن سر الأسرار فى النهضة المصرية المشهورة بالثورة
العراية » . ولم يمكن نشر ما بقى من هذه المذكرات إلى أن
نشرتها « دار الهلال » كاملة عام ١٩٥٣ .
وأصدر المهندس محمود فهمى ، الذى اشترك فى الثورة ،
سجلاً حافلاً بعنوان « البحر الزاخر فى تاريخ الأوائل
والأواخر » . إلى غير ذلك من المذكرات التى نشرت تباعاً .
ومن المؤسف حقاً ألا يقابل الأبطال المنفيون ، بعد
رجوعهم إلى البلاد ، بما يستحقون من التقدير . كان عرابى
حينئذ قد فقد بصره وخارت قواه . أبدى حقيقة شيئاً من
الاضطراب ، وفقد ثقته بنفسه وبالناس ، وطفق يحاول تبرير

الثورة والدور الذي لعبه فيها ، ويطالب باسترداد أملاكه التي
صودرت . وتشكر له الكثيرون ، وأخذت سهام الاحتلال
توجه إليه على صفحات الجرائد المأجورة . تجسم أخطائه
ولم يكن مقصرا ، بل إن كرومر ذاته يقول إن هزيمة الثورة
إنما ترجع إلى تفوق انجلترا العسكرية .

ولقد تكشفنا لى ظروف الثورة وأحداثها طيلة السنوات
الأربع التي قضيتها في القاهرة ولندن وباريس أحضر لدرجة
الدكتوراة في موضوع « شئون مصر الداخلية والخارجية من
١٨٧٦ إلى ١٨٨٢ » على أساس الوثائق غير المنشورة
والمذكرات الخاصة والصحف الدورية الكبرى في العواصم
الثلاث . عشت هذه السنوات الأربع (١٩٥١ — ١٩٥٥)
مع الثورة العراقية وتتبع قادتها ، وتغلبت على شتى العراقيل التي
أحاطت بالبحث .

وكل الذي أرجوه أن تتاح لى فرصة نشر الأصل باللغتين
الإنجليزية والعربية ، وذلك حتى يتسنى للقراء — في بلادنا
وفي خارج بلادنا — أن يتبينوا حقيقة هذه الفترة الزاهية من
تاريخنا مبنية على أساس المصادر الأصلية في العواصم الكبرى
الثلاث .

المكتبة الثقافية

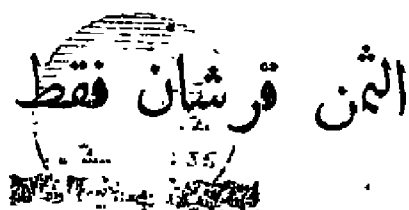
تحقق اشتراكية الثقافة

صدر منها لحد الآن :

- ١ — الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين للأستاذ عباس محمود العقاد
- ٢ — الاشتراكية والشيوعية للأستاذ علي أدهم
- ٣ — الظاهر يبرز في القصص الشعبي للدكتور عبد الحميد يونس
- ٤ — قصة التطور للدكتور أنور عبد العليم
- ٥ — طب وسحر للدكتور بول غليونجي
- ٦ — فجر القصة للأستاذ يحيى حقي
- ٧ — الشرق الفنان للدكتور زكي نجيب محمود
- ٨ — رمضان للأستاذ حسن عبدالوهاب
- ٩ — أعلام الصحابة للأستاذ محمد خالد

- ١٠ — الشرق والإسلام للأستاذ عبدالرحمن صدقي
- ١١ — المريح } للدكتور جمال الدين
والدكتور محمود خيرى
- ١٢ — فن الشعر للدكتور محمد مندور
- ١٣ — الاقتصاد السياسى للأستاذ أحمد محمد عبدالحالق
- ١٤ — الصحافة المصرية للدكتور عبداللطيف حمزه
- ١٥ — التخطيط القومى للدكتور إبراهيم حلمى عبدالرحمن
- ١٦ — اتحادنا فلسفة خلقية للدكتور ثروت عكاشه
- ١٧ — اشتراكية بلدنا للأستاذ عبدالمنعم الصاوى
- ١٨ — طريق الغد للأستاذ حسن عباس زكى
- ١٩ — التشريع الإسلامى
وأثره فى الفقه الغربى } للدكتور محمد يوسف موسى
- ٢٠ — العبقريّة فى الفن للدكتور مصطفى سويف
- ٢١ — قصة الأرض فى إقليم مصر للأستاذ محمد صبيح
- ٢٢ — قصة الذرة للدكتور إسماعيل بسيونى هزاع
- ٢٣ — صلاح الدين الأيوبي
بين شعراء عصره وكتابه } للدكتور أحمد أحمد بدوى

- ٢٤ — الحب الإلهي في التصوف الإسلامي للدكتور محمد مصطفى حلمي
- ٢٥ — تاريخ الفلك عند العرب للدكتور إمام إبراهيم أحمد
- ٢٦ — صراع البترول في العالم العربي للدكتور أحمد سويلم العمري
- ٢٧ — القومية العربية للدكتور أحمد فؤاد الأهواني
- ٢٨ — القانون والحياة للدكتور عبد الفتاح عبد الباقي
- ٢٩ — قضية كينيا للدكتور عبد العزيز كامل
- ٣٠ — الثورة العراقية للدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى



المكتبة الثقافية

مكتبة جامعة لكل أنواع المعرفة
فاحرص على ما فاتك منها ...

واطلبه من :

- ١ - دار القلم ١٨ شارع سوق التوفيقية بالقاهرة
- ٢ - مكاتب شركة توزيع الأخبار في الإقليم المصري
- ٣ - وكلاء الشركة القومية في جميع البلاد العربية
- ٤ - مكتبة المتنى بغداد - العراق

مطابع دار القلم بالقاهرة

المكتبة الثقافية

- ◆ أول مجموعة من نوعها تحقق اشتراكية الثقافة .
- ◆ تيسر لكل قارئ أن يقيم في بيته مكتبة جامعة تحوى جميع ألوان المعرفة بأقلام أساتذة متخصصين وبقرشين لكل كتاب .
- ◆ تصدر مرتين كل شهر . في أوله وفي منتصفه

الكتاب القادم

فنون التصوير المعاصرة

للاستاذ محمد مصطفى الجبازى

١٥ فبراير ١٩٦١

03